روايات احلام

قنديل الضباب

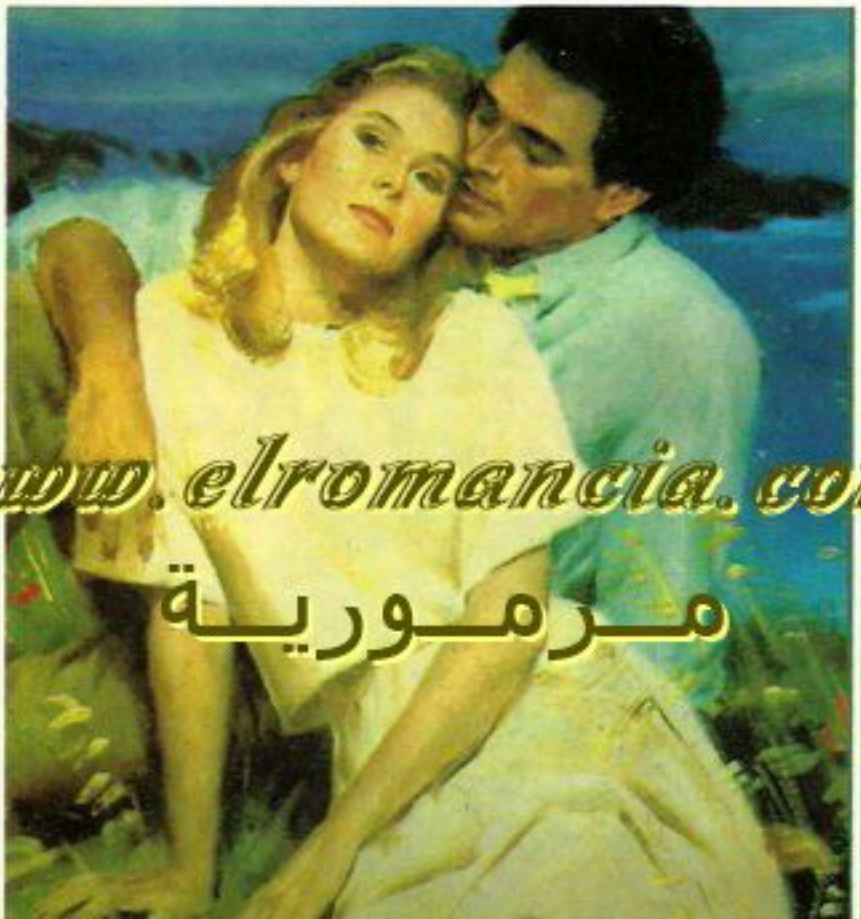

www.elromancia.com

مرمورية

قنديل الضباب

ضحّت كولين بمستقبلها وتخلت عن طموحاتها لكي تؤمّن لشقيقتها الصغرى مستقبلاً ناجحاً... ولكن كل تضحياتها بدت مهددة بأن تذهب هباءً... والسبب: روجيه بوشين...

أوضح لها اليأس ما يجب أن تفعله... ستقتحم عليه قصره وستفتح معركة في عقر داره لكي تخلِّص أختها من براثنه، فمن يظن هذا الرجل العابث نفسه؟

ولكن كيف لكولين أن تفلت بعد أن وقعت هي نفسها في شباكه؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل. الإمارات. مصر ٤ ج. ليبيا
سوريا ٧٥ ل.س. قطر ٦ ر. المغرب ١٥ د. اليمن
الأردن ١ د. البحرين ٦٠٠ ف. تونس ٢ د. السودان
الكويت ٥٠٠ ف. السعودية ١٠ ر. عمان ٦٠٠ ب. العراق

١ ـ امرأة من الزمن الغابر

نظرت كولين إلى كومة الغسيل التي بدأت تتناقص.. كانت قد تأخرت في عملها ذلك الثلاثاء، وأحست بالامتنان لآلة الغسيل التي توفّر عليها الكثير من العناء.. ولكن لا شك أن هذه الآلة المسكينة ستعمل دون توقف حين يعود التوأم إلى المنزل.. وكانت تراهن أن مارك لم يغسل منديلاً خلال إقامته المطولة في مخيم العطلات. أمّا مارشا، توأم مارك التي تصغره ببضع دقائق، والتي تقضي عطلتها مع عائلة فرنسية، فقد تكون أكثر تعقلاً.

كانت تجد أمامها الكثير من العمل مع أن أخاها وأختها بعيداً وليس معها غير أبيها.. والمشكلة أن التوأم سيبدآن الجامعة في شهر تشرين الأول، والتحضير لهذا بحد ذاته عمل كامل.

لم يكن مارك مشكلة بالنسبة للثياب.. فلو تُرك الأمر له لارتدى قميص التيشيرت ذاته والبنطلون الجينز أسبوعاً بعد أسبوع، لكنها لم تكن تسمح له بهذا.. أما مارشا فأمر آخر.. فمعزوفتها الدائمة: لا شيء عندي أرتديه.. وكان هذا المشهد يتكرر يومياً وبالتحديد منذ اكتشفت أن الثياب ليست مجرد شيء ترميه هنا وهناك في أكوام مبعثرة.

لوت ابتسامة رضى فم كولين الجميل اللطيف.. فلسوف تصرخ مارشا من فرط السعادة حين ترى الملابس الجديدة التي خاطتها لها والتي تملأ الخزانة. فلقد عملت ماكنة الخياطة بلا توقف منذ أوصل الوالد مارشا إلى العبّارة التي ستقلّها إلى فرنسا.

تلاشت ابتسامة كولين قليلاً لأنها تذكرت تصرف مارشا الدرامي حين أصر الوالد على عدم ذهابها إلى فرنسا.. حينها تحول جارد بوكستر إلى أب عنيد فتطور الجدال وأصبح عنيفاً.. فقد كان يرى أن الوقت مبكر لطفلة العائلة على ترك العش الآمن وقضاء إجازتها في فرنسا حتى شهر تشرين الأول.

ـ أعدك بأن تقيمي سنة كاملة في فرنسا، وسيكون هذا جزءاً من تعلّمك اللغة.. وعليك القناعة بهذا.

ولأنها أحست أنها ستخسر الجدال، غيرت مارشا طريقتها، فحاولت التملق والمخادعة والتزلّف.. ولأن أباها ظل على عناده انفجرت بدموع الغضب وأخذت تصيح بشكل دراميّ: «سأموت لو لم تتركني أذهب» ثم صعدت إلى غرفتها.

تنهّد جارد قائلاً لابنته الكبرى: «لو أن أمك حية!»

هو ومارك ومارشا، متشابهون في الطباع. وكولين هي الوحيدة التي ورثت طباع أمها الهادئة.. وكان الوالد دائماً يقول لكولين حين تغضب مارشا: «اذهبي وتكلمي معها.. كولين».

كانت كولين تتحمّل جزءاً من المسؤولية، ولم يكن هذا من دون سبب، فقد كان للجميع يد في إفساد مارشا والإفراط بتدليلها.. يومذاك وجدت أختها مستلقية في سريرها ووجها إلى الأسفل تنتحب من أعماق قلبها.. ولم تستطع إلا أن تشعر بالشفقة عليها لأنها كلما حاولت أن تتصرف بطريقة تدل على أنها كبرت كانت تفشل فشلاً ذريعاً، خاصة حين لا تستطيع تنفيذ ما تريد.

راحت كولين تهدئها بنعومة:

ـ هيا الآن طفلتي..! ليس الأمر سيئاً إلى هذا الحد.

انتحبت مارشا:

ـ إنه.. لا يفهم.. لا أحد.. منكم يفهم!

ـ ما الذي لا نفهمه؟

لعبت كولين دور سيّدة المنزل منذ ست سنوات أي منذ وفاة أمها.. لكن حبها لأختها بدأ قبل ذلك بكثير.. أبعدت أفكارها عن المحنة التي تلت موت أمها، وقالت متملقة:

ـ أخبريني حبيبتي..

ـ أنتم لا تفهمون.. أو لا تريدون أن تفهموا كم أحتاج إلى تعلم الفرنسية قبل أن أذهب إلى الجامعة.

وعادت تجهش بالبكاء.

تعرف كولين مدى المجهود الكبير الذي بذلته مارشا في دروسها لتكسب مكانها في الجامعة. لكن أختها كسبت من الدراسة ما فيه الكفاية، ويجب أن تستريح قليلاً قبل بدء الدراسة لكنها لم تقل شيئاً مما تفكر فيه، بل بدلاً من ذلك، تعاملت معها بالطريقة التي طالما تعاملت بها مع «أزمات» مارشا. سألت بهدوء:

ـ أيمكن أن تقولي لي لماذا تعتبرين الأمر مهمّاً إلى هذا الحد؟

ـ أنت تعرفين.. لماذا.

قالت كولين بصبر، دون أن تعرف ما الذي يدور في رأس أختها:

ـ أخبريني مرة أخرى.

ردت مارشا بغضب: «ولماذا أخبرك مرة أخرى؟»

قالت كولين: «لأنك إذا لم تفعلي.. لن أتمكن من فهم وجهة نظرك».

بعد ربع ساعة، عرفت كولين ما كان يعتمل في نفس مارشا..

فقد بذلت مارشا جهداً شاقاً لتُقبل في قسم اللغة الفرنسية، في جامعة «يورك» المرموقة.. لكن هذا الإنجاز فشل في إعطائها الثقة بقدرتها على النجاح في دراستها الجامعية.

وكانت مارشا تعتقد أنها لن تتمكن من إحراز النجاح حين يبدأ العام

الجامعي، إذا لم تقض العطلة في فرنسا حيث تتحدث يومياً بالفرنسية.

وهذا ما جعل كولين تعرف بطريقة ما، أنها ستضطر إلى إقناع أبيها بالسماح لمارشا بالسفر. فأختها الصغيرة لن تبقى ثائرة غاضبة فحسب بل ستجعل الحياة في المنزل جحيماً للجميع وما من أحد يستطيع البقاء غاضباً مثل مارشا وإذا كان السفر إلى فرنسا سيمنحها الثقة التي تنشدها فسيكون هذا تعويضاً صغيراً عن الأوقات الصعبة التي مرت بها.

فلطالما كانت مارشا مصابة بالربو الخفيف.. في الثانية عشرة، حين توفّيت أمهم المحبوبة، أصيبت مارشا بأول نوبة ربو لها.. كانت مذعورة جداً وهي تشهق وتعمل جاهدة لتتنفس. وكانت كولين، التي تكبرها بأربع سنوات، تخاف أن تخسر أختها كما خسرت أمها.. أمّا الأب الذي كان مصدوماً من فقدان زوجته، فقد ترك كل شيء على عاتق كولين التي اعتنت بأختها اعتناء كبيراً.

حين استعادت مارشا عافيتها كانت راحة كولين عظيمة.. لكنّ نوبة ثانية لحقت بالأولى.. وبقيت كولين بعيدة عن مدرستها لتعتني بها.. ثم ما لبثت أن ابتعدت مرة أخرى عن دراستها في النوبة الثالثة.. لكن، بعد خروج مارشا من محنتها، لاحظت كولين أن جميع أفراد الأسرة يتألمون ولا أمّ تهدىء روعهم.

رغم جهودها الشاقة لتوفّق ما بين الطبخ، والتنظيف، وتدبير المنزل، وتنفيذ وظائفها الدراسية، كان يبدو على المنزل الكبير جو من الإهمال. لقد أملت كولين الذهاب إلى الجامعة يوماً.. لكن حين رأت أن أخاها مارك الذي كان يوماً عفريتاً لا تغادر الضحكة فمه، يبدو الآن تعساً ومرتبكاً، يدور في المنزل على غير هدى، عرفت أنّ على التعليم أن ينتظر.

علمت أن أمامها طريقاً طويلاً تسير فيه وحدها.. فقد أصبح والدها منطوياً على نفسه بحيث بات من الضروري أن يُدفع للذهاب إلى العمل كل

يوم.. وأخيراً توصلت كولين إلى قرار سريع لا رجوع عنه.. فهي في السادسة عشرة، وهذه سن قانونية لترك المدرسة.

في الصباح التالي، ولم تكن قد قالت كلمة لأبيها، اتصلت بمدير المدرسة لتقول له إنها لن تعود إلى الدراسة.

ردّ عليها بلطف: «لا يمكنك فعل هذا!»

كان يعرف أنها تواجه مشاكل منزلية.. لكنها قالت بحزم وأدب:

ـ لقد اتّخذت قراري سيد لاكر.

يومذاك ظنت أن والدها سيضرب رأسه في السقف حين يعرف.. لكن، بسبب إغراقه في الحزن، لم يكن أي شيء قادراً على التأثير فيه.. وكان كل ما قاله «ربما هذا أفضل».. ولم يكن هناك سبب يدعو كولين للندم على قرارها.. ففي تلك السنة الأولى، عصفت بالعائلة أزمتان استلزمتا كل وقتها.

فقد أصيبت مارشا بأسوأ نوبة ربو عرفتها، ونقلت إلى المستشفى.. وحين عادت إلى المنزل، كانت متوترة وأخذت تتوسّل إلى كولين أن لا تتركها تعود إلى المستشفى ثانية.

أمّا الشيء التالي الذي حدث، فهو أن والدها فقد فرصة حصوله على قسمه الخاص في مركز الأبحاث، فبسبب قلة اهتمامه بأبحاثه الكيميائية، نال شخص آخر الترقية قبله.

قال لابنته متذمراً:

ـ لن يحظى من هُو في مثل عمري بفرصة أخرى.. لكنّي لا آبه لذلك.

في العام التالي ثاب والدها إلى رشده، فعاد الرجل الذي كان قبل أن تحلّ به الكارثة، لكن المرض ظل يهدّد مارشا التي كثيراً ما تغيبت عن المدرسة.

أما مارك، الذي كان يتلقى عناية خاصة من أخته الكبرى، فقد عادت

البسمة إلى وجهه.. وما إن اقترب عيد ميلاد التوأم الخامس عشر، حتى حدثت المعجزة.. وودعت مارشا داء الربو!

وصدّقت كولين ما قاله الطبيب وهو أن خمسين بالمائة من مرضى الربو يشفون منه بعد أن يكبروا في السن. ومرّ أسبوع بعد أسبوع ولم تحتج أختها إلى أي دواء.

لكن حين أظهرت كل الدلائل أن مارشا شفيت، وبدأت تشارك مارك حديثه عن دخول الجامعة، أخذت كولين فجأة تفكّر في دراستها التي لم تنته.

فكرت أن الكثير من النساء يدرن بيوتهن بنجاح، وفي الوقت عينه يعملن بدوام كامل، فقررت أن تفاتح والدها بالموضوع.

ـ إذا عدت لدراسة السكرتاريا فهل سيشوش ذلك برأيك أمور العائلة كثيراً؟ فلربما حصلتُ على عمل فيما بعد!

لم يخطر ببال الأب يوماً أن كولين تريد شيئاً من الحياة أكثر من العناية بهم، لذا سألها وتعابير الدهشة تظهر على وجهه:

ـ أتريدين الخروج إلى العمل؟

ردت بسرعة:

ـ لن يتغير شيء هنا، ما عدا.. أن التوأمين سيضطرّان لإطعام نفسيهما ريثما أعود في المساء.. لكنهما كبيران بما فيه الكفاية ليتمكّنا من صنع كوب من الشاي وسندويش إذا لم يستطيعا الانتظار حتى العشاء.

بعد حصولها على مباركة والدها، بدأت كولين بأخذ دروس في السكرتاريا.

في الأسبوع الأول من بدء دراستها أظهرت مارشا السخط، أما مارك فأظهر شيء من التحفظ.. أما كولين فظنّت أنّهما لن يلبثا أن يتعوّدا.. لكن ذلك لم يحصل.

فبعد شهر على دراستها، عادت إلى المنزل فوجدت مارك ومارشا

يتشاجران.. مارشا تحب سماع موسيقى «البوب» أثناء القيام بواجباتها المدرسية، ومارك لا يحب هذا.. لذا ذهب إلى غرفتها ليطلب إليها خفض صوت الجهاز. كلمة من هنا وكلمة من هناك حتى وصل الأمر أن صفعت مارشا أخاها. ولشدة غضبه، نسي مارك اهتمامه بها، وأعاد لها الصفعة.. ثم هجمت مارشا بغضب إلى غرفته وبدأت ترمي كتبه وأغراضه على الأرض.. ورد عليها مارك بالطريقة ذاتها.

رأت أن دروس السكرتاريا مهدّدة بالابتعاد لذا أحست كولين بغضب يكاد يدفعها إلى ضرب رأسيهما معاً.. لكن مارك كان عنيداً ورفض الاعتذار.. ومارشا تحدته ولم تعتذر.. لكن كولين استطاعت ضبط أعصابها بطريقة ما وتعاملت مع الأزمة بهدوء، كما تعاملت مع أزمات سابقة.

ولكنها لم تستطع كتم ما حصل عن والدهم.. فقد شكا كلا التوأمين على توأمه مطولاً خلال وجبة المساء.. وكان أن تصور جارد بوكستر أن المنزل ينقلب إلى حلبة مصارعة خلال غيابه وغياب كولين.. لذا لم يكن غريباً أن تقول له كولين وهي تبلع ريقها، إن الوقت غير مناسب لمتابعة دراستها.

لكنه احتج: «ليس من العدل أن تتوقفي عن الدراسة، لأن هذين الاثنين لا يتصرّفان بشكل متمدن».

وجدت كولين نفسها تدافع عنهما:

ـ إنهما يمران بمرحلة حرجة من تطورهما النفسي.

ـ لكنك لم تمري قط بهذه المرحلة.. كنت أكبر منهما حين ماتت أمكم، وتحملت.. كل...

وماتت كلماته ما إن استرجع ذكرى الزوجة التي عاش معها طويلاً.

في الأشهر التالية، بدأت كولين تعي أنها ربّما تضطرّ للتخلّي عن دراستها وعرفت أنها لم تكن مخطئة قط حين قالت إن التوأم يمران بمرحلة

صعبة من نموهما.

مارشا مزاجيّة دائمة التقلّب.. وهي قادرة على إفساد كل شيء.. لكن كولين تعلمت منذ زمن كيف تتصرف حين تبدأ شقيقتها الصغرى بافتعال المشاكل.. أما حين أصبح مارك هو المشكلة الكبرى فقد شعرت أنها تكاد تخرج عن طورها.

فجأة، أصبح كثير الجدل مزاجياً. وقد حاولت كولين جاهدة أن تتفهّم عدوانية الشباب التي حلت في نفسه، إلا أن هذا لم يكن أمراً سهلاً.. ولأن مارك أصبح يعترض كثيراً على كل شيء وصل الأمر إلى مواجهة عنيدة مع أبيه.

ففي إحدى المرات تحدى مارك سلطة أبيه، كما يتحدى كل شيء يجده أمامه. كاد جارد يضربه، لكنه قال لابنته بعد أن هدأت المعركة:

ـ أنت أكثر صبراً مني كولين.. فهل يمكنك التفاهم معه؟

لم تكن تعلم إن كانت قادرة فعلاً على ذلك.. لكن بعد مرور سنة عاملت كولين خلالها أخاها بالكثير من الصبر، بدأ مارك يتغلب على مزاجيته.. وفي أحد الأيام جاء إلى المطبخ، ورمى بباقة زهور بين يديها، وقبّلها، وتمتم بشيء لم تفهمه، ثم اختفى.. فأحست كولين كأنها تلقت هدية ملوكيّة.

توالى شريط الذكريات في مخيّلتها، فأحسّت بالدمع يحرق مقلتيها، وكانت هذه الدموع اليد التي طرقت على باب الذكريات فأيقظتها منها.. وتذكرت كل ما عليها فعله اليوم فليس لديها الوقت لتقف متكاسلة غارقة في الذكريات.. لكنها لم تستطع إلا الشعور بالرضا فبالرغم من كل المحن يبدو كل شيء مستقراً الآن.

عما قريب، سيبدأ مارك دراسة الهندسة المدنيّة في جامعة «أوستن». بينما مارشا، وبمساندة منها، موجودة-الآن في النورماندي تبني ثقتها بنفسها، وستعود عما قريب لتبدأ دراستها في جامعة «يورك». حتى

والدهم، الذي كان قد تخلى عن كل أمل في الترقية، سيحصل على فرصة أخرى.. فبعد الغد، سيواجه مجلس الترقيات.. أما بالنسبة لها، فقد رأت أنّ جوّاً من الاستقرار يخيّم على العائلة، وأدركت أنّ منزلها لم يعد بحاجة ماسّة لها.. لذا قررت العودة إلى دراسة السكرتاريا في الشهر القادم.

كان الشعور بالرضا يغمر نفس كولين... وفيما كانت مستغرقة في عملها، لمحت ساعي البريد يدخل إلى الحديقة، فذهبت فوراً إلى الردهة.. لقد استلمت يوم الجمعة الماضي بطاقة بريدية من مارك، لذا من غير المحتمل أن تستلم منه شيئاً في وقت قصير هكذا.. أمّا مارشا، فقد مرّ وقت على آخر اتصال لها.. واضح أن أختها الصغرى تستمتع بوقتها، فهي لم تكتب إلا رسالة واحدة.

كان الظرف الذي دسّه ساعي البريد في صندوق البريد، معنوناً لها ولأبيها معاً، وهو يحمل طابعاً بريدياً أجنبياً.. أخذته كولين بلهفة، وأسرعت تفتش عن فتّاحة الرسائل.

فتحت الرسالة، فلاحظت أن أختها كتبت رسالتها على أوراق مضيفيها الخاصة المعنونة باسمهم.. ثم بدأت تقرأ.

شهقت كولين بذهول، ثم تابعت القراءة حتى النهاية. غير أنها ما لبثت أن أعادت قراءة ما كتبته مارشا.

حين أنهت كولين قراءة الرسالة للمرة الثالثة، كانت كل دلائل الرضا قد اختفت عن وجهها.

تهاوت مذهولة على أقرب مقعد، وبدأت تفكّر في أختها التي تملك «موهبة» كبيرة في اختلاق المشاكل ولم تستطع إلا أن تتساءل كيف سمحت لنفسها بالتفكير في أن الأوضاع في العائلة تسير على خير ما يرام.. فما أقدر مارشا على القضاء على هذا الهدوء العائلي..! حتى وهي بعيدة عن المنزل وعن انكلترا، لم تفقد شيئاً من قدرتها على إفساد

الأمور.

قرأت كولين رسالة مارشا مجدداً.. يبدو أن مارشا تتصور نفسها واقعة في حب السيد روجيه بوشين، مضيفها.. وأعادت كولين قراءة ما كتبته أختها الصغرى عنه، عن روعته، عن تحذلقه، وعن أسفاره الكثيرة وتجاربه المتنوّعة.. واستوقفتها عبارة مارشا: «أنا واقعة في حبه بشكل بائس»، لكنها لم تصدق ما قرأت، فمارشا التي لم تكمل يوماً شيئاً حتى نهايته، ظنت نفسها تحب أكثر من مرة، ولكن تسرعها لم يكن يدوم أكثر من بضعة أشهر.

ولعل أكثر ما أذهل كولين من هذا الافتتان هو انجرافها الشديد فقد أعلنت مصممة: «قلبي هنا في فرنسا.. أعرف أنكما ستتفهمّان الأمر وتتمنيان لي السعادة، حين تعرفان أنني قررت أن لا أذهب إلى الجامعة، وأن لا أعود أصلاً إلى انكلترا.. بل قررت أن أبقى هنا مع حبي.. روجيه».

تتمنى لها السعادة! أحست كولين برغبة في أن تصفع أختها بحدة بدل أن تتمنى لها السعادة.. وأذهلها أن تفكّر مارشا بعدم الالتحاق بالجامعة خاصة بعد كل هذا الجهد الذي بذلته للحصول على مقعد هناك.

سرت رعشة خوف في جسم كولين عندما أدركت أن الدروس الجامعية قد تبدأ قبل أن تفيق مارشا من أحلامها الوردية وتعرف أن «المسيو» ليس رائعاً كما تظن، وتعود إلى وطنها.

تذكرت بوضوح ذعر مارشا من أن تبدأ الدروس قبل أن تصبح متمكّنة من اللغة الفرنسيّة. وفي الواقع، لم يُسمح لها بالذهاب إلى فرنسا إلاّ لهذا السبب. وتصورت كولين الذعر الذي سيحلّ بمارشا لو اضطرت إلى بدء دراستها بعد بقية الطلاب بشهر أو شهرين، هذا إذا أبقت الجامعة مكانها شاغراً!

لم تكن مارشا ناضجة كما يجدر بفتاة في سنّها.. ولم يكن هذا يُقلق

كولين.. التي اعتقدت أن مارشا ستنضج بعد أن تلتحق بالجامعة، وترى الحياة. بعد إمعان في التفكير قطعت كولين عهداً على نفسها بأن تفعل المستحيل لتذهب أختها إلى الجامعة في الوقت المحدّد.

فجأة خطرت على بال كولين فكرة أزعجتها، لم تكن قد فكرت فيها: ما دور روجيه بوشين في كل هذا؟

حين كانت مارشا في السابق تظن أنها واقعة في الحبّ، كان ذلك الحب متبادلاً دائماً. فالفتيان الذين تعلقت بهم من قبل، بدوا جادين، فهم كانوا يمطرونها بالاتصالات الهاتفية أو يحومون حول منزلها. إما على الهاتف أو على عتبة الدار.. لكن روجيه بوشين ليس بالفتى الصغير بل هو رجل.. وإذا كان وصفها له صحيحاً، فهو رجل مثقف متحذلق، يعرف خبايا الدنيا!

آه.. يا إلهي! وبدأ الذعر يستبد بكولين حين تذكرت أن روجيه بوشين يدير مؤسسة فخمة ناجحة في باريس، ويمتلك عدّة عقارات في النورماندي! وهو إلى ذلك قد ترك مقاعد الدراسة منذ زمن بعيد! هل من الممكن لأي رجل في مثل نضوجه أن يقع في حب فتاة، بل طفلة غير ناضجة، في الثامنة عشرة من عمرها؟ وازداد ذعر كولين حين خطرت على بالها فكرة أخرى.. هل أوهم مارشا بأنه يحبها لكي تسمح له بتنفيذ أغراضه الخاصة معها؟

راجعت ما كتبته مارشا مرة أخرى.. لكنها لم تجد في أي مكان أي دليل على أنه أعترفَ لها بأنه يحبها.. وهذا يعني أنه لم يحبها، ولو فعل هذا لما أغفلته أختها الطائشة أبداً.

لكن هذا لم يشعر كولين بأية راحة. ثم هدأ سخطها قليلاً لأنها تذكّرت رسالة الرجل الفرنسي لوالدها، التي وافق فيها على استضافة مارشا في قصره إلى حين بداية دراستها.

كان روجيه بوشين قد كتب أن هذا سيكون مفيداً لكليهما. فشقيقته

مدام ديكلان، تتوقع أن ينضم إليها زوجها في وقت لاحق ليمضي إجازته في «الشاتو» مع ابنتها ڤيڤيان، التي تماثل مارشا سناً، والتي تتطلع شوقاً لرفيق تستطيع أن تقوّي معه لغتها الإنكليزية.

إذن لا بد أن مدام ديكلان وابنتها ڤيڤيان في القصر. وهذا ما أكّدته مارشا في رسالة بعثت بها بعد أسبوع من وصولها إلى النورماندي، وذكرت فيها أن مضيفها أعزب. حينذاك، لم تلق كولين أو والدها بالاً للأمر. فقد تكلّمت مارشا عن رحلات مضيفها المتكررة إلى باريس لإبقاء عينه على مصالحه العملية، كما تحدثت عن جمال النورماندي. لكن القسم الأكبر من الرسالة كان يدور عن أناقة ڤيڤيان الفرنسية وعن النشاطات التي تقوم بها الفتاتان.

خفّ ذعر كولين قليلاً حين تذكرت وجود السيدة ديكلان في الشاتو.. فبسبب وجود ابنتها التي تماثل مارشا عمراً فستكون مضطرة للإشراف على مارشا أيضاً.. واستمرت كولين تفكّر ماذا ستفعل.

تعرف أنها إذا كتبت تطلب من مارشا أن تعود فوراً إلى الوطن، فلن تحصل على نتيجة؛ فهي تعرف أن أختها ستتحدّاها... فكرت في أن تتصل بوالدها لتسأله رأيه، ولكنها عدلت عن رأيها.. فقد حُدّد موعد مقابلة الترقية يوم الخميس، وهو متوتر الأعصاب سلفاً.. لذا آخر ما يحتاج إليه الآن هو أن تكدر مارشا صفو أفكاره.

لكن كولين فكرت أنه سيعرف على أي حال.. فلا طريقة تستطيع فيها إخفاء رسالة مارشا عنه.. وأدركت أنها لن تستطيع البقاء مكتوفة اليدين حتى يعود والدها إلى المنزل ليلاً.. لا بد أن تفعل شيئاً لتخفف من صدمته حين يقرأ الرسالة.

نظرت إلى الرسالة مجدداً، وأحست بالغضب من مارشا.. لقد سبق أن كتبت لها تخبرها عن حصول والدها على فرصة أخرى للترقي.. ومن السيء أن تكون أختها مهملة إلى هذه الدرجة. ألا تعرف أن هذه الأخبار

ستشغل باله وهذا آخر ما يحتاج إليه الآن؟

فجأة، لمحت كولين على طرف الورقة التي استخدمتها أختها للكتابة، رقم هاتف «شاتو بوشين» أمامها فعرفت فوراً ماذا ستفعل...

اتجهت إلى الهاتف وهي تأمل أن يكون لديها ما تقوله لأبيها ينقذه من الذعر حين يقرأ الرسالة.

استجمعت هدوءها، وطلبت الرقم، وسرعان ما بدأ الخط يرن..

كانت مادة الحساب الموضوع الرئيسي لدراستها في المدرسة، أما اللغات فكانت ضعيفة فيها.

عندما رد عليها شخص لم تفهم من كلماته شيء سارعت تقول:

ـ أنا لا أتكلم الفرنسية.. هل تتكلم الإنكليزية؟

جاءها الرد: «نعم.. بالطبع».

ثم أضاف الصوت بإنكليزية صحيحة ولكنة فاتنة ألغت ارتياحها:

ـ عمّ تودين أن تتحدثي؟

تعاظم الشك في نفس كولين.. لا شك في أنّ هذه الفتنة قد تحول مارشا إلى بلهاء.

سألت: «أنت مسيو روجيه بوشين؟».

سادت لحظة صمت.. ثم أجاب وأدب فاتن في صوته:

ـ روجيه بوشين في خدمتك مدموزيل...؟

ـ أنا كولين بوكستر.. شقيقة مارشا.

منعها ولاءها لأختها أن تقول له شيئاً عن الرسالة.. لكن التفكير في ما جاء فيها، جعل صوتها بارداً مجدداً، وهي تسأل:

ـ هل لي أن أتكلم مع مارشا أرجوك.. مسيو؟

ـ يؤسفني أنك لا تستطيعين الآن مدموزيل.

دل صوته على أنّه سئم الحديث معها، أو ربّما لم يعد يهتم لها كثيراً بسبب طريقتها الباردة في الحديث.

أردف: «شقيقتك ليست هنا الآن.. فإذا كان هناك رسالة ملحة..».

قاطعته:

- وهل خرجت مع ڤيڤيان؟

ازداد قلقها حين قال روجيه بوشين باللهجة المؤدّبة ذاتها:

- لسوء الحظ أن لويس والد ڤيڤيان مرض منذ بضعة أيام، فاضطرّت ڤيڤيان وأمها لترك قصري لتكونا إلى جانبه.

دفعتها طبيعتها الحساسة إلى السؤال عن صحة المسيو ديكلان.. وكانت تهمّ بالتمنّي له بالشفاء العاجل حين انعقد لسانها فجأة.. فجأة أدركت أن مدام ديكلان التي يُفترض بها أن تكون في الشاتو للإشراف على مارشا، قد تركت القصر لذا فهناك أمور أخرى يجب أن تشغل بال كولين أكثر من صحّة السيد ديكلان.

سألت، غير قادرة على إخفاء ذعرها:

- ومارشا.. أما زالت في الشاتو.. معك؟

جاء الرد الحاد:

- بالتأكيد.. هذا ما اتفقت عليه مع والدك، أليس كذلك؟

- لكن..

قاطعها روجيه بوشين:

- أوه.. فهمت..

الواضح أنه لاحظ ذعرها، لكنه لم يعرف السبب الحقيقي وراءه.. فقال كأنه يريد أن يخفف من مخاوفها:

- مارشا بخير.. تبدو سعيدة هنا، ولم تذكر قطُّ أنها تفتقد ڤيڤيان.. كما تبدو قانعة تماماً برفقتي الوحيدة.

- أتقول.. إن مارشا، ليس لها رفيق في منزلك سواك مسيو؟

- طبعاً، هناك الخدم.. لكني لا أعتقد أن أختك تميل للأمور المنزلية.

يبدو أنه متمكّن من الإنكليزية كتمكّنه من الفرنسية.. لذا فإن استخدامه لكلمة «تميل» كان متعمداً. أحسّت كولين أنه يسخر منها، كما تعاظم شكها بأن «افتتان» مارشا ليس من جانب واحد فقط.. وباتت شبه متأكدة من أن شيئاً ما يدور بين الاثنين.

بذلت جهداً لتبقى هادئة مهذبة:

- لا أظن، مسيو، أنّ من الملائم أن تعيش شقيقتي بمفردها معك في منزلك.

أبلغته وجهة نظرها.. وانتظرت الرد. ولم تنتظر طويلاً.. ولكن ويا للذهول! لم يكن الرد بالكلمات، بل.. بالضحك! صعقت وأدهشها أن يجد ما قالته مسلياً.. وهذا ما جعل من الصعب عليها إكمال الحديث بأدب ووقور.

قالت ببرود:

- مسرورة أنك تجد الموقف مسلياً مسيو! لكن..

قاطعها والتسلية ما زالت في صوته:

- هل فهمتك بشكل صحيح؟ هل قلت إنك شقيقة مارشا؟

أكدت بحدة:

- هذا صحيح.. لماذا تسأل؟

رد:

- قالت لي مارشا إنّ شقيقتها في الثانية والعشرين. مع ذلك يصدمني أن تتحدثي معي كجدةٍ أكثر منك كأخت.

لم يكتفِ بهذا، بل سألها محاولاً كتم ضحكة تكاد تنفجر:

- ألم يقل لك أحد مدموزيل، إننا الآن في الربع الأخير من القرن العشرين؟

يا لوقاحة هذا الرجل البارد! كيف يجرؤ على السخرية منها! لكنها تمكنت من منع نفسها عن الرد بوقاحة مماثلة:

ـ قد نكون في أواخر القرن العشرين مسيو.. لكننا هنا في انكلترا نميل إلى الاهتمام بما يحدث لصغارنا.

عندها اختفى المرح من صوته، وسمعته كولين يردّ بصوت بارد فيه لمسة من العدوانية:

ـ أتلمّحين إلى أننا في بلادي لا نهتم بصغارنا؟

ردت محاولة اختصار الجدال معه:

ـ ما ألمّح إليه مسيو.. هو أن تقول لشقيقتي أن تعود إلى الوطن فوراً.

لم تعجبه طريقة كلامها، إذ قال بخشونة ونفاد صبر:

ـ اقتراحك مدموزيل يبدو لي أمراً.

ـ افهمه كما تشاء.. أريد أن تعود شقيقتي إلى انكلترا دون تأخير.

اكتشفت كولين فيما بعد أن هذه ليست الطريقة المثلى للكلام مع سليل البيوتات النبيلة في فرنسا.. لكن، لم يسبق أن كدّرها أحد مثل هذا الرجل.. مع ذلك، صُدمت حين تخلى عن ادّعاء الأدب، وأجابها بالعجرفة ذاتها.

ـ أنا لا آخذ أوامر من أحد.. إذا كنت تريدين شقيقتك مدموزيل بوكستر، أقترح عليك أن تأتي بنفسك لتأخذيها.

وأقفل سماعة الهاتف.

بعد مرور ساعتين، كانت كولين لا تزال ترغي وتزبد ممّا قاله روجيه بوشين من أنها من بقايا القرن الفائت.. وأصبحت كراهية هذا الفرنسي تسري في دمها.. لكن ماذا ستفعل بخصوص مارشا؟

استعادت حديثها مع روجيه بوشين. اللعنة على الرجل! إنها متأكدة أنه لن يرسل شقيقتها إلى موطنها، فهل من الممكن أن يخبر مارشا أن أختها قلقة عليها؟

أوه.. ما عساها تفعل بشأن مارشا؟

اليأس وحده أوضح لها في النهاية ما يجب أن تفعله.. حين بدأت

تتخيّل أختها هناك ضحيّة لاستغلال ذلك الرجل المتعجرف، عرفت أنها لن تحسّ بالراحة حتى تعود مارشا آمنة إلى المنزل.

كانت تظنّ أنها لن تستطيع إخفاء رسالة مارشا عن أبيها.. ولأنه سيقلق كثيراً إذا رأى الرسالة، قرّرت إخفاءها.. هذه فرصته الأخيرة لكي يترقّى، فمن الضروري أن يكون مطمئن البال حتى يستطيع أن يبلي بلاء حسناً في مجلس الترقيات يوم الخميس.

تذكرت بوضوح قول روجيه بوشين المتعجرف «إذا أردت عودة أختك مدموزيل بوكستر أقترح عليك أن تأتي لتأخذيها».. وأحست أنها أصبحت في خضمّ المعركة.. اللعنة عليه! هذا ما ستفعله! وإذا حالفها الحظ، ستكون مع مارشا يوم الخميس في انكلترا.

وصلت العبّارة البحرية التي نقلت كولين من انكلترا إلى فرنسا بعد ظهر اليوم التالي بعد أربع ساعات. وكان الوقت قد أزف لتراجع خريطة الطريق إلى النورماندي، ولتستعيد كل ما حدث.

انزعجت لأنها ستضطرّ للكذب على أبيها، لكن عليها أن تفعل ذلك. وأخيراً أقنعته بأنها ترغب في أخذ إجازة قصيرة قبل موعد بدء دروس السكرتاريا.. ورد عليها بدفء:

ـ طالما قلت لك إن عليك التفكير في نفسك.. ويجب أن تتحركي فوراً إذا أردت السفر والعودة قبل بدء الدراسة.. هل لديك فكرة عن المكان الذي ستذهبين إليه؟

ـ أنا.. فكّرت، أن أستخدم سيارة «الأوستن» لأجول في النورماندي.. تقول مارشا إنها منطقة رائعة و..

أنقذها من المضي في الشرح حين صاح بابتهاج:

ـ فكرة ممتازة! وبإمكانك زيارتها وأنت هناك! لقد مر زمن طويل منذ تلقينا منها رسالة.. قد تكون متورطة ببعض المشاكل.

قالت بهدوء وهي تبتسم:

- ربما من الأفضل أن أسافر في الغد.

ابتسم: «خير البر عاجله».

أذهلها أن كل شيء كان سهلاً إلا ضميرها.. وكانت في غرفتها تضع بضعة أشياء اعتقدت أنها ستحتاج إليها في حقيبة صغيرة، حين أطل والدها برأسه من الباب.

قال: «أوه لا! أنت مسافرة لمدة أسبوعين».

وسرعان ما استبدلت الحقيبة الصغيرة بحقيبة ملابس كبيرة:

- اذهبي واستمتعي بوقتك.. ولا تفكري فيّ أو في مارك.

كانت تمطر حين غادرت العبارة ميناء «تشاربورغ»، لكن أحوال الطقس هي آخر ما يشغل بال كولين.. فقد كانت تخاف من أن يستبدّ الجنون بمارشا، فترفض العودة معها.

كان تفكيرها مشوّشاً، فهي المرة الأولى التي تقود فيها السيارة في الجانب الآخر من الطريق وكانت تركز بقوة وهي توجه السيارة إلى قمة «ايكارتفيل» حيث يقع منزل روجيه بوشين.

جعلها جهلها باللغة الفرنسية تخشى أن تضيّع الطريق، وأن لا تتمكن من إيضاح ما تريد لو توقفت للسؤال. ولكن لحسن حظها، كانت لوحات الطريق واضحة. وبعد حوالى ساعة ونصف من التركيز الشاق على القيادة، رأت لوحة على الطريق مكتوب عليها «ايكارتفيل».

اتبعت اللوحة شاعرة بالاسترخاء بحيث لم تفكر في أن من سوء الادب عدم الاتصال لتخبرهم بقدومها.. لكنها هزت كتفيها تبعد عنها الفكرة، لقد قال لها روجيه بوشين بكل عجرفة أن تأتي، لذا يجب ألا يعترض على وصولها دون إعلان مسبق.

فتشت عيناها عن مبنى أنيق يمكن أن يكون قصراً.. وبدأ توترها يزداد عندما دخلت المبنى الأصفر الحجارة، الوشيد على شكل زاوية قائمة، وتفكر في الاستقبال الذي ينتظرها. ثم دخلت سيارتها إلى حدائق رائعة،

راحت تصعد في طريق داخلية طويلة، توصل إلى فناء، وعندئذ نسيت كولين قلقها للحظة.. فالشاتو بنوافذه المرتفعة المستوحاة من العصر الجورجي في انكلترا، كان فعلاً جميلاً.

أوقفت السيارة ونزلت منها وعيناها غارقتان بالاعجاب.. ثم تساءلت ما إذا وصلت إلى العنوان الخاطىء.. لأنها توقعت أن ترى أبراجاً وقصراً قديماً.. لكنها لم تجد من هذا شيئاً.. فالبناء الجميل الذي طالعها، لم يكن يحمل أي أثر للأبراج، بل كان مؤلفاً من طابقين وكان ذا سقف مرتفع ومداخن طويلة.. لذا فكرت في أنه ليس «الشاتو» الذي تقصده.

شعرت بالقنوط لأنها فكّرت أنها مضطرة لتعود أدراجها، ثم لفت نظرها ظهر رجل طويل من باب يقع إلى يسار المبنى.

كانت على وشك التقدم إليه لتقول جملتها الوحيدة التي تعرفها من الفرنسية: «هل تتكلّم الإنكليزيّة» حين أوقفتها شقراء كانت معه.. وعرفت أنها ليست مضطرة للسؤال عما إذا كانت الشقراء تعرف الإنكليزية ولا أن تتساءل عما إذا كانت شكوكها صحيحة. لم تعد بحاجة لتتساءل عن هويّة هذا الرجل الطويل الأسود الشعر الذي يبتسم للوجه المتلهف المرتفع نحوه.. فهي تعرف أنه يعرف الإنكليزية.. وهو دون شك «شاتو بوشين». وإذا لم تكن مخطئة، هذا الرجل ليس سوى روجيه بوشين المتغطرس.

رأت الرجل يضع يده على ذراع مارشا وكأنه يريد أن يقودها إلى اتجاه ما فهب فيها غريزة الحماية.

لأن مارشا كانت تدير ظهرها إلى كولين، كان روجيه بوشين هو الذي رآها أولاً.. غير أن كولين رأت على وجهه اهتماماً بارداً وهي تقترب، محاولة استجماع كل الهدوء الذي تستطيعه.

تركّزت تلك النظرة الباردة، الثابتة عليها بعد أن توقفت على بعد بارد أو أكثر منهما. وبدا لها أن روجيه بوشين كان ينتظر ما تريد قوله هذه

القادمة. لكن مارشا أدركت فجأة أن مرافقها انشغل عنها.

كانت الابتسامة على وجهها الجميل حين استدارت لترى ماذا يلهيه. ثم أرتدت بعنف، وتحوّلت نظرتها إلى رعب كامل.

لم تشكّ كولين في أن مارشا لا تريد وجودها في «الشاتو»، فقد بدا صوتها مرتاعاً تماماً، حين صاحت دون ابتسامة ترحيب:

ـ لماذا جئت؟

***

٢ ـ العذراء والمغرور

نجت كولين من الرد لأن الرجل الفرنسي خاطب أختها بالفرنسية.. فردّت مارشا بالطلاقة عينها وهي غاضبة.. عندها أحست كولين أنها ترغب في صفعهما معاً.

ارتدّ روجيه بوشين إليها:

ـ إذن.. أنت مدموزيل كولين بوكستر.. كلب حراسة مارشا..؟ أليس كذلك؟

كلب حراسة! نقلت كولين نظرها غاضبة بينهما، وأحست أن مارشا هي التي أطلقت عليها هذا الاسم.. بدأت غرائز إجرامية تتحرك في داخلها.. لكنها من خلال تعبير وجه أختها الذي يقول: «أنا لا أهتم أبداً» رأت أن من الأفضل تجاهل أختها الصغرى.

ثم أجبرت نفسها أن ترد ببرود:

ـ نعم، هي ذاتها.. أنا في عطلة ولأنني كنت في المنطقة. فكرت أن أتفقد أختي.

ـ طبعاً.. لا يُعقل أن تكوني قريبة ولا تزوري مارشا.. كما أنه لا يُعقل أن تنزلي في فندق وأنت في النورماندي.. يجب أن تقيمي في منزلي.

إنهما يتبارزان.. هذا ما عرفته كولين التي لم تستطع إلا أن تلاحظ مدى وسامته، ولكنها لم تقطع القنال وتصل إلى هذا القصر لتخرج في النهاية دون أن تحقق ما جاءت من أجله.

www.elromancia.com

ـ هذا لطف منك مسيو . .

رد: «هذا شرف لي مدموزيل. سأعلم مدبرة المنزل لتعد غرفة لك. إنما هلاّ أعطيتني مفاتيحك لأضع سيارتك في المرآب. وفي هذا الوقت ستأخذك مارشا إلى «الصالون» لتناول المرطبات».

أعطته المفاتيح، ولكن مارشا تكلمت بالفرنسية بلهجة متذمرة. . فأجابها روجيه بوشين. . ثم، نظر إلى كولين وسألها:

ـ هل تتكلمين الفرنسية مدموزيل؟

ـ أظنّ أنّني لا أفهم من هذه اللغة شيئاً إلا كلمة من هنا وأخرى من هناك.

وعرفت أنه لم يقل لمارشا شيئاً عن مكالمتهما. . . ألم يسبق أن ذكرت له ذلك عبر الهاتف؟.

ـ كانت مارشا تذكّرني كيف أن علينا استغلال فرصة الصحو بين زخات المطر للتنزّه. . لكنني واثق أن لديكما الكثير لتتحدثا عنه.

وارتدّ نحو المبنى.

رمقت مارشا كولين بنظرةٍ عدائية تدلّ على أنها تفضل التنزّه مع روجيه على الجلوس في «الصالون» والتحدّث مع أختها. . لكن المضيف فتح الباب ودخل، ثم وقف منتظراً الفتاتين كي تدخلا.

مشى روجيه خلفهما، ولحقت كولين بمارشا التي تقدّمت على مضض في ردهة ضيقة، تفضي إلى ردهة أكثر اتّساعاً. . هنا تركهما روجيه بوشين قائلاً بلطف:

ـ أتطلّع شوقاً إلى رؤيتكما وقت العشاء.

بدا واضحاً أن مارشا لم تكن في مزاج جيد لتجلس وتتناول المرطبات مع أختها. . إذ قالت لها:

ـ سأصعد إلى غرفتي.

لكن كولين لحقت بها.

بما أنها تعرف طباع أختها الحادّة، أدركت أنه لا يمكن التواصل مع مارشا طالما هي غاضبة إلى هذا الحدّ. لكن مارشا قد تبقى غاضبة لأسبوع أو أكثر، وكولين تنوي إعادتها معها غداً.

كانت مصممة على تحطيم الحواجز التي تضعها مارشا عادة حولها، لذا لحقت بها إلى غرفة نوم رائعة وأقفلت الباب خلفها. . هنا تغلب إحباط مارشا على نوبة غضبها. . وسألت:

ـ لماذا جئت؟

ـ وهل أنت بحاجة لأن تسألي؟

صاحت مارشا متأوهة:

ـ يا إلهي! هل أرسلك أبي؟

ـ لا. . أخفيت رسالتك عنه. وهو لم يعرف. .

ـ أخفيت الرسالة؟ حسناً فعلت. لكنه سيعرف عاجلاً أم آجلاً، لأنني لن أذهب إلى الجامعة.

ـ إنه. .

ثم صمتت وقد لمعت في ذهنها فكرة جديدة، فقالت بلطف:

ـ أوه. . حبيبتي مارشا! أعرف أنك خائفة قليلاً من الذهاب إلى بورك. . لكن كذلك. .

ـ خائفة؟ أكاد أجن! السبب الوحيد لعدم رغبتي في مغادرة فرنسا هو أنني أريد البقاء مع روجيه.

فتحت كولين فمّها لترد، لكن مارشا أكملت:

ـ هكذا، فإذا جئت لتحاولي تغيير رأيي، فوفري جهدك. . لن أذهب إلى الجامعة. . وسأبقى هنا مع روجيه، الذي يحبني كما أحبه.

تملّكتها رغبة بحماية أختها، خاصة عندما تذكرت أن روجيه رجل محنك، ومارشا هي التي أشارت إلى هذا في رسالتها.

ـ يحبك؟ وهل قال لك إنه يحبك؟

هدأ ذعرها حين ترددت مارشا، وقالت معترفة:

ـ ليس بالكلمات.. لكنه يحبني.. وأعرف هذا.

تأوهت كولين بصمت: آه.. مارشا.. مارشا! وعرفت أن عليها أن تبدد أحلام أختها الوردية.. وبغض النظر عن الألم الفظيع الذي ستشعر مارشا به، كان مستقبلها كله على المحك.

حاولت أن يكون صوتها هادئاً وهي تسأل:

ـ أتعتقدين أنه سيتزوجك.. مارشا؟

ـ يتزوجني؟

صيحة الذهولة التي أطلقتها مارشا أوضحت أنها لم تفكر في مسألة الزواج بروجيه بوشين.. لكن الارتياح الذي شعرت به كولين، سرعان ما تلاشى.. فقد صدمتها مارشا حين سألت ببرود:

ـ من يريد أن يتزوج؟

حاولت كولين جاهدة الحفاظ على صبرها وهدوئها، وسألت:

ـ إذن.. ماذا تريدين؟

ردت مارشا بغضب ولهجة مهينة:

ـ أوه.. لأجل الله كولين.. اكبري!

كانت هذه الكلمات الغاضبة تعني أن أختها «كبرت».. صدمت كولين وكرهت نفسها للسؤال.. لكن، كان هناك شيء آخر أحست أنها لن تستطيع تجاوزه.

بدأت ببطء:

ـ هل تقولين.. إنك وروجيه بوشين.. كنتما..

ولم تلفظ كلمة «عاشقين» أبداً. فقد دُقّ الباب ووصلت امرأة في حوالى الخمسين من العمر، ترتدي ثياباً أنيقة سوداء.. وطارت كلمات مارشا في الهواء:

ـ وماذا تظنّين؟

في الوقت الذي كانت فيه كولين مصدومة إلى درجة شوّشت لها أفكارها، استدارت مارشا للتكلم مع المرأة التي عرّفت عنها على أنها مدبرة المنزل. قالت السيدة بوسيل لكولين إنها تنتظرها لتلقي نظرة على الغرفة التي حُضّرت لها.

لم يعد لكولين من خيار، فهي لا تريد أن تعرف مدبرة المنزل أن الأمور لا تجري على ما يرام بين الأختين.. لذا لحقت بها إلى غرفة مجاورة.

نقلت كولين نظرها من السقف إلى الأرض إلى الستائر المخملية الوردية القاتمة، المطرزة بأهداب وردية.. فتلاشت مخاوفها لبضع لحظات.

قالت وهي تتنفّس بصعوبة:

ـ إنها جميلة جداً!

فسألتها مدام بوسيل والسرور بادٍ على وجهها لما رأت على وجه كولين من سرور:

ـ أتعجبك؟

ـ كثيراً.. تتحدثين الإنكليزية مدام بوسيل؟

ـ قليلاً فقط.. إذا تكلمت معي ببطء.

بقيت المدام معها لبضع دقائق وتبين أن فرنسية كولين تماثل من إنكليزية المرأة. ولكن كولين استطاعت أن تُفهمها بأنها ستكون أكثر من مرتاحة في الغرفة التي أعطيت لها، كما عرفت أنّ إحدى العاملات في المنزل، وتُدعى كلير، ستحمل إليها بعض المرطّبات.. وحاولت كولين أن تُفهم المرأة أنها لا تريد أن تكون مصدر إزعاج لأحد. ثم غادرت المدام لتعتني بشؤون أخرى.

عرفت كولين أن من وضع سيارتها في المرآب استخدم المفاتيح لإحضار حقيبتها من الصندوق، ففي الجهة الأخرى من السرير، وجدت

الحقيبة والمفاتيح معاً.. لكن كان هناك مسائل أهم تشغل بالها.. كانت قد بدأت تستعيد حديثها الأخير مع مارشا، وتتساءل عمّا إذا كانت شقيقتها تراوغ لمجرد المشاكسة، حين وصلت فتاة جميلة سوداء الشعر تحمل صينية شاي.

سألت: «كلير؟».

ردت الفتاة: «نعم مدموزيل».

ابتسمت ابتسامة حلوة ووضعت الصينية من يدها..

سألتها كولين سؤالها المألوف: «هل تتكلّمين الإنكليزية؟».

واكتشفت أن كلير لا تتحدث الإنكليزية، لذا اضطرت إلى إنهاء الحديث بابتسامة وبعبارة:

ـ ميرسي كلير.

صبّت لنفسها فنجان شاي.. لكنها، بسبب توتّرها، لم تتمكن من تناول أي شيء من المقبلات المرتبة فوق طبق.. إن كانت مارشا تثير أعصابها لمجرد المشاكسة، فقد نجحت، ذلك أن كولين تهتم جداً بها. واعترفت لنفسها أنّها ربّما تبالغ قليلاً في حماية أختها. أوليس هذا أمراً طبيعياً؟ فقد سهرت الليالي تعتني بمارشا خلال مرضها خشية ألا تستطيع أختها سحب نفس آخر، لذا فمن الطبيعي أن تبالغ في حمايتها لها.

لقد قالت مارشا إن روجيه بوشين يحبها.. فهل هذا صحيح؟ لكن كولين لم تستطع أن تصدق.. يبدو هذا الرجل ناضجاً.. فهل يمكن له حقاً أن يحب فتاة طائشة مثل مارشا؟ التي كانت من الذكاء بحيث استطاعت كسب مئات الشبان في الجامعة غير أنها في الوقت ذاته غير ناضجة وخفيفة العقل.

كانت كولين قد بدأت تفقد الأمل في إعادة أختها معها في الغد، ثم خطرت ببالها فكرة مروعة.. فإذا بقيتِ مارشا مصممة على البقاء في فرنسا، فهذا يعني أن كولين، التي قرّرت أن لا تعود إلى منزلهم في

«تشيلتنهام» من دونها، مضطرة للبقاء كذلك!

يا إلهي! ستضطر لقضاء أكثر من ليلة تحت سقف منزل روجيه بوشين الذي عرض عليها استضافتها طيلة مدّة إقامتها في النورماندي.

ظهرت صورة المضيف الساخر البهيّ الطلعة في خيالها.. لكنها أبعدتها بسرعة، وحاولت التفكير بصفاء.. لقد فكرت في الموضوع كثيراً، حتى بدأت تتشوش.. لكن عليها أن ترضى بالأمر الواقع، فإن لم تستطع جر مارشا من الشاتو إلى السيارة فالعبارة البحرية فلن يكون أمامها إلا البقاء.

صحيح أنها ستكره هذا، لكن لا حل آخر.

وستتقبل العشاء على مائدة كذلك.. فهل هناك أفضل من مراقبته ومارشا معاً؟ وهل هناك فرصة أفضل لتكتشف ما يشعر به هذا الرجل نحو شقيقتها؟

ما إن حلت السابعة والنصف حتى كانت كولين قد استحمت وتبرجّت تبرجّاً خفيفاً وارتدت فستاناً أزرق. كانت تمشط شعرها حين دخلت مارشا غرفتها.

ارتدّت كولين عن مرآة طاولة الزينة.. وما هي إلا نظرة واحدة إلى تعبير وجه مارشا المعادي، حتى علمت أنّ مارشا ما زالت ساخطة.. ثم فتحت الشقيقة الصغرى فمها الجميل لتقول ببرود:

ـ جئت فقط لأقول لك إنني وروجيه عادة نتناول المرطبات في الصالون قبل العشاء. بإمكانك الانضمام إلينا فيما بعد.

تجاهلت كولين فظاظتها، وردت بهدوء:

ـ شكراً مارشا.

بدت متلهفة للانضمام إلى روجيه، ومع ذلك لم تسارع إلى مغادرة الغرفة.. كانت كولين مستعدّة للتمسك بأية فرصة لتقترح عودتهما في الغد، لكنها كانت تعلم أنها لو قالت أي شيء، لنجحت فقط في جعل

أختها أكثر عدوانية.

سألت: «وهل جئت لأجل هذا فقط؟ هل هناك مايزعجك مارشا؟».

ردت مارشا بحدة:

ـ الشيء الوحيد الذي يزعجني.. هو أنت! وأقسم كولين، إنك لو قمت بما يفسد أي شيء عليّ.. فلسوف.. سوف.. أقتل نفسي!

تنهدت كولين للهوة الكبيرة التي باتت تفصلها عن أختها.. ثم قالت بهدوء:

ـ أتعرفين مارشا، لا أستطيع إلاّ أن أفكر في أن التمثيل الدرامي كان سيناسبك أكثر، فلديك موهبة رائعة في هذا المجال.

ردت مارشا بغضب وإحباط:

ـ بما أنني لا أنوي الالتحاق بالأكاديمية الملكية للفنون الدرامية، ولا بجامعة يورك، فلن يكون لكلامك أي فرق.

رفعت رأسها ذا الخصلات الشقراء المجعدة وخرجت. أما كولين، فقد ألهاها انشغال بالها بأختها عن تمشيط خصلات شعرها الأشقر القصير.

مارشا قادرة أن تكون أحب الفتيات حين يسير كل شيء على هواها، حين غادرت الغرفة راحت تتساءل إن كانت سنوات المرض الثلاثة هي المسؤولة عن تأخر النمو العاطفي لديها؟

كانت كولين قد بدأت تنزل السلم حين خطرت على بالها فكرة قلبت رأساً على عقب كل تفكير منطقي فكرت فيه. فحين يصل الأمر للتفكير في الشق العاطفي، فإن مارشا، بالرغم من طيشها متقدمة كثيراً على كولين.. فهي وقعت في الحب أكثر من مرة، بينما كولين، التي تبلغ الثانية والعشرين من العمر، فلم يكن لديها فكرة عن هذا الشعور!

سمعت صوت ضحك مارشا، فاتّجهت إلى «الصالون» حيث وجدت أختها تنظر بافتتان إلى مضيفها.. لكن عندما نظرت كولين إلى روجيه

بوشين الذي يظهر المرح على تعابير وجهه، أدركت أنّها تكنّ له الكثير من مشاعر الكراهية.

تمتم: «آه مدموزيل! كنت قد بدأت أعتقد أنك بدعة من خيالي».

أجبرت كولين نفسها على أن ترد ببرود:

ـ آسفة لأنني تأخرت.

ابتسم: «لا يهم.. أنت هنا الآن.. ولا بد أن والدك أكثر الرجال فخراً لأن لديه ابنتين جميلتين».

تعلم كولين أنها ورثت قسمات أمها الأستقراطية الرائعة، لكن لم يسبق أن وصفها أحدهم بالجميلة، ولهذا شعرت بالسعادة... لكن حين نظرت إلى مارشا، ورأت أن وجهها يشعّ كذلك بهذه النظرة السعيدة لامت نفسها بشدة.. يا الله! كان يسحرني مثلما سحر مارشا!

قاطع روجيه بوشين أفكارها قائلاً:

ـ هل لي أن أقدّم لك عصير الكرز مع الصودا مثل مارشا؟

رفضت بأدب:

ـ لا أريد شيئاً لي.. مسيو.

ازدادت كراهيتها له حين شعرت أنّه يلمّح إلى أنها، مثل أختها، غير معتادة على مثل هذا الشراب الفاخر..

قالت مارشا:

ـ ستقدم مدام بوسيل الطعام قريباً على أي حال. أتساءل ماذا لدينا للعشاء الليلة روجيه؟

سألها:

ـ وهل أنت جائعة؟

أجابت بدلال:

ـ أتضور جوعاً!

ـ إذن يجب أن تتناولي الطعام حالاً.

ثم رافقهما من الصالون إلى غرفة الطعام.

كانت غرفة الطعام كسائر الغرف في المنزل أنيقة تدل على ذوق رفيع. جلست كولين قبالة مضيفهما، وجلست مارشا إلى جانبه. أحست أن مكانها مناسب لمراقبة أية نظرات قد يتبادلانها. ولم يكن يهمها البتة أنها هكذا ستكون عرضة لنظرات روجيه المتفحّصة...

تجاهلت مارشا أختها، واستدارت إلى مضيفها تتحدث إليه بالفرنسية. لكنه ابتسم لها وقال بالإنكليزية:

ـ سنتحدث بالإنكليزية أمام شقيقتك، صغيرتي.

تلك الابتسامة! هذا السحر! وأحست كولين بالجاذبية التي تشعّ من حوله. أما مارشا، فابتسمت له دون أن تظهر أيّ غضبٍ على توبيخه لها.

أشاحت كولين ببصرها عنهما، وشرعت تتأمّل روعة الغرفة، وعرفت أن هذه الفخامة والجمال سيؤثران فيها إذا لم تكن حذرة. ثم نظرت إلى طبقها الفارغ.. ورفعت نظرها فوجدت عينين رماديتين باردتين ثابتتين تراقبانها.

تريد أن تكون مثالاً للباقة أمامه، لذا يجب أن تأخذ المبادرة بالحديث من وقت إلى آخر. وجعلتها هذه الافكار تقول أول ما خطر ببالها:

ـ هل تقوم السيدة بوسيل بالطبخ بنفسها مسيو؟

هز رأسه إيجاباً وسأل:

ـ هل أعجبتك الحلوى بالقشدة؟

ردت بأدب:

ـ كثيراً.

أنقذها دخول السيدة بوسيل من التفتيش عن كلمت الثناء.

وجدت كولين أنها ليست بحاجة إلى السعي لموضوع جديد فقد أبقى روجيه بوشين الحديث دائراً عن المطبخ ولكنه تطرق إلى مهارة كولين في الطهو.

قال موجهاً الحديث لكولين: «تقول مارشا إنك سيدة في المطبخ».

أنكرت كولين: «ليس إلى هذه الدرجة».

توقفت قليلاً ثم أضافت: «لا أملك براعة الطباخين الفرنسيين، المشهور عنهم تفوقهم ومهارتهم بالطهو».

عرفت من التواء فمه أن الموضوع يسليه:

ـ وهل تتمتعين بعملك كربة منزل؟

كاد شيء من التوتر يدفعها للرد بحدة. لكن ضبط النفس الذي اعتادت على ممارسته لسنوات، ساعدها:

ـ إن لهذا العمل مكافأته الخاصة.

سأل مقترحاً:

ـ بيت سعيد؟

إنه يعلم أنها لا تتكلم عن الكسب المادي. وتمتمت كولين:

ـ أنا..

وترددت.. هل كان بيتهم سعيداً؟ نظرت إلى مارشا التي كانت نكدة لأنها لا تشارك في الحديث.. فأشارت إليها وهي ترد:

ـ ربما تكون مارشا أفضل من يرد على سؤالك.

رد روجيه:

ـ إذن لقد حصلت على الرد مسبقاً.. لأن مارشا كانت مشعّة كأشعة الشمس منذ لحظة وصولها.

بينما تألقت مارشا للإطراء الذي سمعته، فكرت كولين: يا إلهي.. هل تتصرف أختها بشكل لائق؟ وأكمل روجيه:

ـ لتكون سعيدة هكذا، يجب أن يكون البيت الذي نشأت فيه سعيداً.

لكن كولين ترى أن هناك سبباً آخر وراء إشراق أختها.. فقد كانت مثالاً للتكدّر والمشاكسة حين وافق والدها على السماح لها بالمجيء إلى فرنسا.. فكيف لا تكون في منتهى السعادة وقد حققت ما أرادته؟

www.elromancia.com

قُدّم الطبق التالي من الطعام وكولين مستغرقة في تفكيرها، فما زالت تجهل مشاعر روجيه نحو أختها. . لقد راقبتهما عن كثب خلسة. وفي الوقت الذي بدا فيه واضحاً أن مارشا متعلقة بكل كلمة يقولها، لم يظهر هو ما يدل على أنه متعلق بمارشا. . وهذا ما قد يعني أنه ذكي جداً.

عنت على بالها فكرة أن روجيه بوشين يلعب لعبة شيطانية. . وهذه الفكرة نقلتها إلي فكرة رهيبة أخرى فقد تبقى هنا في الأسبوع المقبل، ولا تتوصل إلى إقناع أختها. . وهذا ما أوصلها إلى حالة ذعر. فأشاحت ببصرها عن مضيفها، وأخذت تركّز على أختها. . فمهمّتها هنا تنحصر في إعادتها إلى انكلترا في أسرع وقت ممكن.

بدأت:

ـ هل تلقيت الرسالة التي أخبرتك فيها عن فرصة ترقية والدنا؟

سألت مارشا باهتمام:

ـ وهل أُجريت المقابلة معه؟

ـ ستجرى المقابلة غداً.

لم تتمكن مارشا من مقاومة اعتراضها:

ـ كيف يمكنك الابتعاد عن المنزل في مثل هذا الوقت الحاسم بالنسبة له!

تمكنت كولين من المحافظة على هدوئها. . لكنها لم تكن ممتنة لروجيه بوشين أبداً، حين قاطعها فجأة، وكأنه أحس بجرحها:

ـ أرجو أن يكون والدك بخير؟

ردت بلهجة باردة:

ـ إنّه جيد جداً. .

ثم وجدت طريقة لإيصال ما تعني إلى مارشا دون التسبب بمزيد من الحرج لنفسها.

أضافت: «ربما لم تخبرك مارشا. . لكن والدي كان يائساً جداً يوم

ماتت أمي، حتى كاد عمله يتحطم».

جعلها ولاؤها لأبيها تشعر أنها تخونه، لكن مستقبل مارشا هو الذي تقاتل من أجله. لذا لا يجدر بها أن تلقي بالاً لإحساسها بالخيانة أو للكبرياء.

تمتم روجيه:

ـ خسارة الزوجة الحبيبة صدمة لأي رجل.

وابتسم لها:

ـ لكنك وقفتِ إلى جانبه. . لقد أخبرتني مارشا كيف تخليت عن دراستك، لتبقي في البيت وتعتني بالعائلة.

حاولت كولين تجاهل الصدق الذي تجلّى في ابتسامته.

ـ أي شخص كان سيفعل ما فعلت. . .

ـ لكنك كنت في السادسة عشرة فقط!

وعرفت أنّ مارشا قد سردت له تاريخ العائلة عشر مرات أو أكثر. .

وردت:

ـ كان والدي يائساً. . كما قلت لك. لكن، والحمد لله، لقد عاد الآن إلى طبيعته. . إنّه يستحق أن يكون سعيداً. . وإذا لم نتعرّض لمصيبة أخرى، وحصل على هذه الترقية، كنا جميعاً سعداء.

تدخلت مارشا لتغيير الموضوع:

ـ أتساءل كيف ستكون صحة السيد ديكلان غداً.

وحاولت كولين جاهدة أن تتذكّر من هو السيد ديكلان، فسألت:

ـ السيد ديكلان؟

سأل روجيه مارشا:

ـ ألم تخبري أختك عن مرض والد فيڤيان منذ بضعة أيام؟

تذكرت كولين، وعرفت أن روجيه بنفسه هو الذي أخبرها عبر الهاتف. . ووجدت نفسها تقول:

ـ عسى أن لا يكون شيئاً خطيراً..

قال روجيه:

ـ سيخضع لويس للمزيد من الفحوصات غداً.

تدخلت مارشا بسرعة، وكأنما لتثبت علاقتها الوثيقة بروجيه وعائلته:

ـ لقد اقترحت مدام ديكلان حين غادرت هي وڤيڤيان أن أذهب معهم.

عرفت كولين أن السيدة ديكلان تدرك تماماً ما تمليه الأصول.. وأحست بالانزعاج حين لاحظت المرح والتسلية يبدوان على وجه روجيه بوشين. وشعرت بأنه يقرأ أفكارها ويظنها قديمة الطراز.

فدفعت نفسها لتقول لمارشا:

ـ ما كان بالإمكان أن تذهبي معهما. فلدى المدام ديكلان ما يكفي من مشاكل تقلقها في الوقت الحاضر دون..

قاطعتها مارشا بحدة:

ـ هذا ما قاله روجيه.. لكن، على أي حال لم أكن قادرة على الذهاب.. ليس وروجيه يحتاجني في عمله المكتبي!

قالت كولين بدهشة:

ـ أتقومين بعمل مكتبي؟

تذكرت كلمات أختها حين أخبرتها أنها ستدرس السكرتاريا: «أنا لن أقترب من أي مكتب لعين، ولو عن بعد ميل».

خاطب روجيه مارشا:

ـ هذا ما يذكّرني.. لقد وعدتني بإنهاء ترتيب الملفات حين نعود من نزهتنا.

صاحت مارشا:

ـ أوه..! نسيت! لكننا لم نذهب لنتمشى.. أليس كذلك؟ سأتمّ ذلك الآن.. فلن يأخذ العمل مني وقتاً طويلاً.

ثم خرجت.

عندما أغلق الباب، اقتنعت كولين، أن روجيه بوشين قد تدبر أمر غياب مارشا عمداً. وهذا ما كان جيداً.. فقد اعتبرت أنه قد آن الأوان لتقول له بضعة أشياء.

قال يقترح:

ـ هل نتناول القهوة في الصالون؟

لحقت بهما السيدة بوسيل إلى الصالون حاملة صينية قهوة، ثم تركتهما.. صبت كولين القهوة وقدمت فنجاناً لروجيه.. ثم أخذت فنجانها لتجلس على مقعد مريح وهي تفكر بما تريد قوله.

جلس روجيه قبالتها.. وأزعجها مرة أخرى حين أخذ زمام المبادرة منها وقال:

ـ أخبريني مدموزيل.. هل تسيطرين دائماً بمثل هذه القسوة على نفسك؟

كان سؤاله آخر ما تتوقع، لذا كاد فنجان القهوة يقع من يديها.. سألت ببرود:

ـ أرجو عفوك؟

ـ الواضح أن هناك خلافاً بينك وبين أختك، لكن مارشا خلال العشاء، لم تستطع إخفاء غضبها منك. أمّا أنت، فلم تسمحي لنفسك مرة واحدة بإظهار الغضب.

عرفت أن عليها أن تكون حريصة جداً مع شخص بهذا الذكاء، فقالت ببرود مؤدب:

ـ لا أجد جدوى من الصراخ.. لأن ذلك لن يوصل أيّاً منا إلى أي مكان.

ـ والمكان الذي تريدين الوصول إليه معها.. هو العودة إلى انكلترا، أليس كذلك؟

ردت بقسوة:

ـ هذا سبب وجودي هنا، فأنت اقترحت بنفسك أن آتي لآخذها.

هز رأسه موافقاً.. ثم سأل:

ـ وهل يعرف والدك سبب مجيئك إلى النورماندي؟

أحست بعدم الراحة وهي ترد:

ـ يظنني والدي جئت لقضاء عطلة.. لكنها ستكون عطلة قصيرة.. كنت آمل أن أعود غداً. لكن.. مارشا..

ـ تبدو.. صعبة المراس، قليلاً؟

ـ لم أطلب منها بعد المجيء معي غداً.

كانت تفكر بأن تسأله عن اللعبة التي يلعبها حين أخذ منها زمام المبادرة مرة أخرى:

ـ وهل تظنّين، مدموزيل، أنك ستحصلين على موافقتها باستخدام الابتزاز العاطفي؟

صاحت تحدق إليه:

ـ الابتزاز العاطفي؟

ـ لقد أثرت موضوع والدك عمداً، أليس كذلك؟ حين حاولت أن تجعليها تعرف ضرورة وقوفها إلى جانب أبيها في هذه الظروف، وحين لمّحت إلى أن والدك يستحق أن يكون سعيداً بعد كل الحزن الذي مر به؟

لم ترد أن تعترف بهذا الآن. لكنها لم تستطع أن تنكر صحّة أقواله.. فهي كانت منكبة على استخدام «الابتزاز العاطفي» للتأثير في أختها.

قالت وقد بدأت تشعر بالتوتر:

ـ أفترض أنك على صواب.. فأنا مستعدة لاستخدام أي سلاح لإعادتها.

للحظات، بدا مضيفها مهتماً بنيران الغضب المشتعلة في عينيها أكثر من اهتمامه بالرد.. ثم تمتم:

ـ من المؤسف مدموزيل، أنك تعرفين القليل عن الشبان الصغار.

وكان ردّها فورياً:

ـ لقد اعتنيت بشابين صغيرين لست سنوات.. لذا لا بد أنني أعرف شيئاً عنهم! وسأعترف مع هذا أنك تعرف الكثير عن «النساء» الصغيرات.

كانت ردة فعله الوحيدة على سخريتها هي ابتسامة مرح ضيّقة.. ولم يخفّ انزعاجها منه، حين قال:

ـ الواضح أنك لا تتحمّلين تخفيف قبضتك عن عنق مارشا الصغيرة.. ألا ترين مدموزيل أن عليك أن تعطيها بعض الحرية حين تلتحق بالجامعة؟

قالت بضعف وكأنها تكلم نفسها:

ـ أنت.. لا تعرف! لقد قالت مارشا إنها لا تريد الذهاب إلى الجامعة.

فجأة اختفت التسلية من وجهه، وابتهجت كولين لأنه أخذ هذا الخبر على محمل الجدّ، وسأل:

ـ وهل قالت لك هذا؟

ـ كلامياً وكتابياً.. ولم أرغب أن أشغل بال والدي الذي لا يعرف بأمر الرسالة التي تلقيناها من مارشا بالأمس.

ـ تلك الرسالة.. هل كانت سبب مخابرتك الهاتفية؟

كشف السؤال لكولين أن لا شيء يشوب ذكاء هذا الرجل.

ـ جئت بسرعة.. ليس بسبب قلقك على وجودها بمفردها معي.. لكن..

ـ بل لذلك كل العلاقة..

لم تهتم وقد بدا غاضباً لأنها تشكّ بأخلاقه.. لم يكن يهمّها غضبه، بل كان عليها فقط أن تعرف ماذا يجري.. وسألت ببرود:

ـ أخبرني مسيو.. هل تتلاعب بعواطف أختي؟

ـ أتلاعب؟

عرفت من النظرة المتحفظة التي رمقها بها وهو يضع فنجان القهوة من يده، أنه يفهم ما تعني. وأنه غضب لمثل هذا السؤال.

كان شكله يوحي بالغضب الشديد، ولكن لم يعد أمام كولين فرصة لتتراجع خاصة بعدما وصلت إلى هذه المرحلة.

أعادت فنجانها إلى قرب فنجانه:

ـ لأكون أكثر تحديداً.. هل تعبث معها.. أم أنت..؟

قاطعها بغضب:

ـ أوتجرؤين على السؤال..؟

قاطعته بدورها وهي تشد على أسنانها:

ـ عذر مارشا الوحيد، بقولها إنها لن تذهب إلى الجامعة.. هو أنها تريد البقاء هنا.. معك.

رأت أنه على وشك مقاطعتها مرة أخرى، فسارعت تقول له:

ـ تعتقد أنها تحبك.

ذهل روجيه بوشين، وبدا مصعوقاً.. فعرفت كولين أنها المرة الأولى التي يسمع فيها بشيء كهذا.. لكنها قررت أنه مهما حصل، فهي لن تذهب لتنام دون أن تحل الأمر.

لقد حان الوقت لدفعه للاعتراف أو الإنكار.. وهي لا تريد قضاء ساعة أخرى بالتفكير في ما ورد في تلك الرسالة. لم ترَ ما يمنعها من استخدام براعة مارشا الدرامية.

قالت تحاول الحصول على اهتمامه الكامل:

ـ مارشا.. متعلقة بك جداً.. وقد أفهمتني بوضوح، أنني لو فعلت ما يفسد الأمور عليها.. فلسوف.. سوف.. تقتل نفسها.

ضاقت عيناه، ولم يكن لدى كولين فكرة عمّا يمكن أن يكون جوابه.. ثم رد بكلام متعمد:

ـ يبدو لي، مدموزيل، أنك تواجهين مشكلة.

صاحت:

ـ أعرف هذا!

ثم بذلت جهداً لتبقى هادئة وهي تسأله:

ـ أولا تظن مسيو.. أنك تواجه مشكلة ما؟

سأل بأدب:

ـ أنا.. مدموزيل؟

عرفت كولين أنها لن تحصل على أية مساعدة منه. وفكّرت بالخروج من الغرفة دون كلمة أخرى، لكن تصميمها على القتال من أجل مارشا ومستقبلها جعلها تبقى حيث هي.

قالت ببرود:

ـ حسن جداً مسيو.. أقبل أن تكون المشكلة مشكلتي وحدي، كما أفهم أن مسؤولية مارشا ومستقبلها تقعان على عاتقي وحدي.

ثم أكملت بلهجة حادّة:

ـ وبما أن والدي سمح لها بالمجيء إلى هنا لاعتقاده بأنّك سيد مهذب..

تلاشى صوتها لأنها رأت عينيه تشتعلان غضباً، فقد تجرأت وشككت في شرفه..

أردفت: «أنت ستتحمّل مسؤولية ولو صغيرة عنها».

أجاب بلهجة صارمة شديدة البرودة:

ـ مسؤوليتي تتلخّص في العناية بها وفي الحرص على أن تكون بخير وسعيدة.. فهل يمكنك القول إنها ليست هكذا؟

ـ إنها دون شك سعيدة.. لكنني أريد إعادتها إلى البيت.

عرفت من نظرته المتعجرفة أنه «عنيد» كما عرفت أنها لم تلتق من قبل برجل قادر على تبديد هدوئها هكذا، لكنها قاومت لتستعيد رباطة جأشها.

حاولت من جديد توصيل الرسالة إليه:

ـ لقد عملت مارشا بجهد كبير لتُقبل في الجامعة. لذا لا يمكن السماح لها بالتخلي عن كلّ ما حققته.

حين لم تتلق منه رداً، بل نظرة ثابتة، بدأ هدوؤها يتلاشى.. فأكملت:

ـ أقل ما يمكنك فعله، هو أن تقول لها إنه لم يعد من المناسب بقاؤها هنا بعد رحيل مدام ديكلان وڤيڤيان.

أشاح بوجهه عنها وركز اهتمامه على إبريق القهوة.. لكن كولين شعرت، بحدسها، أنه يدرس ما قالته له. وبدأ أملها بإقناعه يزداد.. كانت أعصابها مشدودة.. ظنّت أنها ربّما تستطيع إقناعه وأن الابتسامة التي ارتسمت على وجهه تُعتبر مؤشراً حسناً. غير أنها سرعان ما شعرت بالخيبة حين تكلّم.

ـ إنما.. كيف يسعني أن أطلب إليها الرحيل مدموزيل؟ ألم أعط والدها وعداً مكتوباً بأنني سأستقبل ابنته الصغيرة في بيتي حتى الأسبوع الذي يسبق بدء الدروس في الجامعة؟

ـ لكنها تقول إنها لن...

تجاهل روجيه محاولتها مقاطعته:

ـ لا أستطيع التراجع عن مثل هذا الوعد، فهذا ما يمليه عليّ شرفي الفرنسي.. خاصة لرجل إنكليزي.

تبدّدت آمالها مجدداً.. وبدأت تدرك كم أهانته بملاحظتها.. ولعل ما زاد توترها أنها لاحظت شيئاً جديداً في تعابير وجهه وكأنه فكر في شيء.. وكان عليها أن تسأل:

ـ ماذا...؟

قال ببطء:

ـ قد ننجح.

ـ ما الذي قد ننجح فيه؟

ـ وقد لا ننجح.. لكنني مستعد للتجربة.. أنا لا أستطيع الحنث بوعدي لأبيك، كما لا أستطيع السماح لمارشا الجميلة أن تنتحر.. لكني أعتقد أن هناك طريقة تمكنني من الخلاص من هذه الورطة، وفي الوقت عينه من الاحتفاظ بشرفي.

ـ أية طريقة؟ وكيف؟

قال بفاجئها:

ـ عيناك تعكسان ما في داخلك.. هناك عاطفة حب قوية في نفسك، مدموزيل.. عاطفة تحاولين بألم إخفاءها.

بدا وكأنّه يتعمّد إطالة الوقت، فصاحت كولين:

ـ حباً بالله!

ابتسم وتمتم، وكأنما يكلم نفسه:

ـ أجل.. ربما لن يكون هذا صعباً علي.

سحبت كولين نفساً عميقاً:

ـ هلا قلت لي عمّ تتكلم؟ قلت ربما هناك طريقة لحل.. مشكلتي.. مشكلتنا.. فأية طريقة اكتشفت؟ ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ المسألة، كما أعتقد، مسألة ماذا ستفعل.

وكأنما يريد ألاّ يفوّت أية ردة فعل تصدر عنها، مال إلى الأمام في مقعده، وأضاف:

ـ أفضل طريقة لشفاء افتتان مارشا بي.. هي أن أدعي أنني أغرمت بك.

اتسعت عينا كولين من شدّة الصدمة، وهبّت من مقعدها غير مصدّقة.. ووقف روجيه كذلك، وتقدم خطوة نحوها.. ثم قال ببرود دون أن يبتسم:

ـ أعرف من خلال خبرتي، أن بنات جنسكن اللطيف يظهرن كثيراً من الكبرياء في مثل هذه المسائل، وأنا واثق أن مارشا غير مستثناة.. كما أنني

متأكد أن كرامتها ستجعلها تدّعي أن لا أهمية لغرامي بك.. ولسوف تصر على أن تعودا معاً إلى انكلترا، بكل تأكيد.. إنما عليك التجاوب، وبشكل مقنع، مع تحرشاتي.

كانت تحدق إليه وهي تحاول أن تفهم.. هل خانها سمعها؟ أما قال للتو إنه سيدّعي أنه معجب بها؟ ويجب أن يكون هذا الإعجاب متبادلاً.. ولسوف تثور كرامة مارشا، وسترغب في العودة طوعاً إلى انكلترا! بهذه الطريقة، سوف يحافظ على كرامته، لأنه سيبقى على استعداد لاستضافتها.. لكنه لن يستطيع منعها من العودة إن هي أرادت ذلك. وهكذا تعود الشقيقتان معاً إلى الوطن، وتنتهي جميع المشاكل.

كانت تلتقط أنفاسها من صدمة اقتراحه، حين اقترب منها أكثر ووضع ذراعه حول كتفيها بشكل حميم. ثم انحنى يهمس في أذنها:

ـ كل ما هو مطلوب، مجرد مداعبات خفيفة. ولكن من المحتمل في هذه الحالة، عزيزتي.. أن أضطر إلى أخذك إلى فراشي.

رغم تلقّيها للصدمة الأولى بصمت، إلاّ أنها لم تستطع استيعاب الصدمة الثانية دون أن تهبّ صارخة:

ـ كيف تجرؤ؟

الغضب الشديد الذي استبدّ بها وهي تدفعه عنها منعها من ملاحظة وميض الإعجاب في عينيه لكنه عرف أنها لاحظت تسليته. أخذت تصيح به، وقد أخذ منها الغضب كل مأخذ:

ـ أيها الفرنسي العابث المغرور!

انطلقت نحو الباب، تتبعها جلجلة ضحكته الساخرة، ثم قال لها:

ـ أعتقد يا مدموزيل، أنك لم تعانقي رجلاً قط.. فكيف بما أوحيت به؟

بدأت تغلي من شدّة الغضب، ثم ارتدت لتقول بحدة:

ـ تأكّد مسيو.. أنني حين أقرر الذهاب إلى الفراش مع رجل.. فلن

يكون هذا الرجل أنت!

ضحك:

ـ أنت إذن.. عذراء.

لم تسعفها أية عبارة ذكية أو خبيثة لتردّ بها عليه.. فصاحت:

ـ أووه.. اذهب إلى الجحيم!

ثم خرجت من الصالون، وكادت تصطدم بأختها القادمة من الجهة الأخرى..

سألتها أختها: «من الذي سيذهب إلى الجحيم؟».

لم ترد كولين.. بل أكملت طريقها بوقار إلى غرفتها.. إنّ روجيه بوشين رجل مقرف يثير الاشمئزاز في النفس.. كيف يجرؤ على اقتراح أمر مماثل؟ فما من رجل مهذب، يقدّم اقتراحاً كهذا.. يا للشيطان الساخر! من يظن نفسه؟

وفيما كانت تطفىء النور لتنام، أخذت تلعنه في سرها.. وسرعان ما اشتعل غضبها مجدداً عندما تذكّرت ردّة فعل مارشا حين سألتها عما إذا كانا عاشقين..

استعادت ذكرى سؤالها له عمّا إذا كان يعبث بأختها.. وتذكرت تحفظه وكم بدا منزعجاً حين ضغطت عليه لتعرف ما إذا كان يعاشر مارشا.. وعرفت كولين أنهما ليسا عاشقين.. وأنّه لا يرغب في أن تكون مارشا في فراشه.

... تذكّرت قوله بأنه سيأخذها هي إلى فراشه لو اضطر.. وأخذت ترغي وتزبد.. لكن، قبل أن تستسلم إلى نوم متقطع، كان هناك واقع واضح أمامها.. مهما كانت المشاعر التي تكنّها مارشا له، فهو لن يقترح ما اقترح لو كان يحبها!

***

٣ ـ العناق الأول

أملت كولين أن تنسى وساوسها ما إن يطلع النهار، لكنّها أُصيبت بخيبة أمل.. ففي الصباح التالي برزت مشكلة جديدة.. كيف ستقول لمارشا إن روجيه بوشين لا يحبها؟

يؤلمها أن تسبب الألم لأختها هي أيضاً. لكن إن كانت مارشا على مزاجها العدائي فهذا يعني أنها لن تقبل شيء مما قد تقوله أختها الكبرى لها، ولن تصدقها.

تركت كولين فراشها بقلق، ودخلت الحمام الملحق بالغرفة.. فكرت وهي تستحم أن مارشا يمكن أن تزداد عناداً حين تعرف أن أختها ناقشت أمرها مع روجيه، وربّما تصبح أكثر تصميماً على البقاء في فرنسا.

عرفت أنها تسرّعت حين قالت له أن يذهب إلى الجحيم.. لكنّها كادت تفقد سيطرتها على نفسها مرة أخرى حين غادرت الغرفة ووجدت أن روجيه بوشين يحتل أفكارها. فعليها أن تبعده وتبعد كل شيء من ذهنها إذ ستحتاج إلى كل ذرة من هدوئها حين تبدأ مارشا بتعمد المعارضة.. فكرت أن تدق باب غرفة أختها لترى ما إذا كانت جاهزة للنزول وتناول الفطور، لكنها لم تفعل.. فهي لم تقرر بعد ماذا يجب أن تخبرها.

عندما وصلت أسفل السلم، التقت مدبرة المنزل التي حيتها بسرور: «بونجور مدموزيل..» وقادتها إلى غرفة صغيرة. رأت كولين أن مائدة الفطور مجهزة لشخص واحد.. فحاولت إفهام مدبرة المنزل أنها تفضل انتظار شقيقتها.

ردت مدبرة المنزل بمزيج من الفرنسية والإنكليزية:

ـ لقد تناولت مدموزيل مارشا، فطورها باكراً.

دهشت لأن مارشا التي طالما دُفعت دفعاً خارج السرير في الصباح، قد استيقظت وتناولت الطعام قبلها.

ولم تكن هذه هي المفاجأة الوحيدة.. فقد شرحت لها مدبرة المنزل، وبالخليط الفرنسي الإنكليزي عينه، أن مدموزيل مارشا تعمل بجهد مع المسيو بوشين في مكتبه.

وفيما كانت كولين تحاول إخفاء ذهولها، دخلت خادمة، قدمتها مدبرة المنزل باسم أڤلين، تحمل «الكرواسان» الطازج.. وكان من الواضح أن أڤلين لا تتكلم الإنكليزية، ثم خرجت.. ثم، وبعد أن ألقت مدبرة المنزل نظرة على المائدة واطمأنت إلى أن كل شيء في مكانه، تركت كولين تتناول فطورها، دون إزعاج.

مع ذلك، كانت منزعجة.. إنها مستعدة لفعل المستحيل لتعود مارشا إلى البيت.. وها هي مارشا مصممة على البقاء. وعندما تذكّرت أنه يتقبل الموت على الحنث بكلمة شرف لأبيها، وأنه لا ينوي أن يقول لمارشا إن وجودها غير ملائم، ازدادت حيرتها.

استعادت حديثها معه، فرأت أن الشيء الوحيد الجيد الذي خرجت به، هو معرفتها أنه لا يعبث مع مارشا، ولا يحبها. لكن لن يجدي نفعاً أن تقول لأختها هذا.. وبدأت تتخبّط في أفكارها.. فقيام مارشا بالأعمال المكتبية، ونهوضها باكراً، يعنيان الكثير.

لم تشعر كولين بشهية للطعام، فاكتفت بشرب فنجان من القهوة، ثم غادرت الغرفة.. كانت عند أسفل السلم حين أدركت أنها لن تحتمل العودة إلى غرفتها والجلوس بيأس منتظرة انتهاء مارشا من العمل المكتبي.. فكان أن قررت الخروج إلى الحديقة.

كان الطقس لطيفاً معتدلاً.. ومع أن السماء ملبدة بالغيوم، فلم تكن

تمطر.

وقفت أمام المبنى العتيق المصنوع من الآجر، ومرّة أخرى، لم تستطع منع نفسها من الإعجاب بروعة «هذا القصر».. هل من الممكن حقاً أن يكون العشب بهذا اللون الأخضر الذي يزيّن هذه المروج الرائعة؟ شعرت بشيء من الراحة يتسلل إليها، ممّا أثار استغرابها.. تصورت أنها تعيش هنا طوال السنة. إنما روجيه لا يقيم هنا دائماً.. فحسب قول مارشا، إنه يقضي جزءاً كبير من وقته في باريس، وتمنت لو كان في باريس الآن. ولكن هذه الفكرة لم تبعث الراحة في نفسها.

هامت على وجهها في الحديقة، ثم توقفت حيث ينتهي بناء الشاتو الحجري الأصفر. لاحظت أنها كانت تقف قرب نافذة تطل على إحدى الغرف، واسترعت انتباهها حركة على الجهة الأخرى لزجاج النافذة.. كانت تلك الغرفة مكتبة، أما الحركة التي لفتت نظرها، فهي حركة روجيه بوشين الذي كان ينحني على مارشا الجالسة وراء منضدة وكأنه يشرح لها بعض التفاصيل.. هل تستطيع مارشا التركيز على تعليماته وهو قريب منها إلى هذا الحدّ؟ كانت أختها الصغرى ترفع نظرها إلى روجيه والافتتان بادٍ على وجهها، وكان هذا سبباً كافياً لتسارع كولين إلى الابتعاد.

أسرعت مبتعدة، ووصلت إلى طريق ترابية عند أسفل طريق القصر الداخلي.. بدت الأراضي الريفية خضراء جميلة، تشبه الريف الإنكليزي كثيراً.. لكن كولين كانت ساخطة بحيث لم تلاحظ شيئاً.. فقد أخذت فكرة جديدة تعذبها.

هل كان روجيه بوشين حقاً يعطي تعليماته لمارشا عن عمل ما، أم تراه كان يستفيد من المعلومات التي قالتها له كولين عن افتتان الفتاة به؟

لم تستطع كولين، لشدّة قلقها، أن تتذكر كم كان غاضباً حين لمّحت إلى أنه يعبث مع مارشا.. كل ما كانت تعرفه وهي تترك الطريق الترابية الملتوية أن شقيقتها الصغرى كانت تبدو مسحورة، بحيث قد تكون عاجزة

عن مقاومة رجل له خبرته. وكم تمنت كولين بيأس أن ترى تعبير وجهه! هل كان عملياً، أم أنه كان يحاول إغواءها بعد أن عرف افتتانها به؟؟

تأوهت كولين، ثم قادتها قدماها نزولاً على الطريق التي سلكتها بالأمس.. يا له من كابوس!

بعد مرور بعض الوقت أحست بسقوط نقطة مطر على وجهها.. فتوقف تفكيرها الغاضب قليلاً، وتوقفت لتنظر حولها.. عندها فقط، أدركت أنها قد ابتعدت أميالاً عن الشاتو.. وليس هذا فقط، بل إنها تقف وسط مطر غزير.

كان التبلل آخر همها.. لكن التنورة الصيفية التي كانت ترتديها التصقت بساقيها.. ولو استمر المطر بالهطول هكذا فلسوف تبدو نموذجاً للاتساخ بالوحل حين تصل الشاتو!

واستمر هطول المطر.. لكنها لم تضطر لقطع مسافة طويلة وحدها.. فعندما وصلت إلى مفترق طرقات، ظهرت سيارة فاخرة من الجهة المقابلة.. وكان روجيه بوشين وراء المقود.. أبطأ السيارة حين أصبح قربها، وما هي إلا لحظات حتى سألها:

ـ هل مسموح لي أن أقلّك بسيارتي مدموزيل؟

عندما رآها تقطر ماءاً، التمعت نظرة تسلية في عينيه، فكادت تقول له ببرود إنها تفضل أن تسير.. لكنها قبلت عرضه.

تمتم روجيه:

ـ ظننت ستقولين لي مرة أخرى أن أذهب إلى الجحيم.

ولما لاحظت ارتجاف أطراف فمها قررت عدم الاعتذار عما قالته في الأمسية السابقة.

تجاهلته مؤقتاً.. لكن، حين لم يحرك السيارة فوراً، نظرت إليه، فأعطاها منديلاً أبيض كبيراً..

قالت بهدوء:

ـ شكراً لك.

بعد أن جفّفت وجهها، حاولت تجفيف الماء عن شعرها.. لم تكن تعرف ماذا ستفعل بالمنديل، لكنها كانت واثقة أنه لن يرغب في إعادته إلى جيبه.. ووضعته قرب الزجاج الأمامي.

شعرت بالارتباك حين وقعت عيناها على وجهه، ورأت أنه يحدّق إلى قدّها الذي التصق به فستانها. غير أن عينيه الرماديتين لم تطيلا النظر.. بل رفع عينيه إلى عينيها، فإذا بها ترى لمسة لطف غريب فيهما وهذا ما أثار دهشتها.. وازداد استغرابها حين شعرت أنها لم تعد راغبة في مجادلته.. وأحست أن توترها بدأ يتلاشى كما شعرت برغبة في مصالحته..

لكن هذا الإحساس لم يطل كثيراً.. فقد قال بصوت هادىء:

ـ تبدين متعبة كولين.

إنها تسمع اسمها الأول على لسانه للمرة الأولى.. وكان يمكن لهذا أن يجعلها تستسلم.. لكنها تذكرت فجأة أنها تبدو متعبة بسببه. فلولا وجود شخص اسمه روجيه بوشين، لما بقيت مستيقظة نصف ليلة أمس يتآكلها القلق على مارشا.

ـ كل ما أحتاج إليه مسيو بوشين هو أن يقال لي إنني أبدو محطمة.

كانت لهجتها صارمة، رسمية، وكأنها تريد القول له إنها لا تنوي مصادقته وترفض أن تدعوه باسمه الأول.

قال، دون تراجع:

ـ آه.. أنت بحاجة للحصول على.. مديح مدموزيل؟

شهقت:

ـ للحصول على...!

تابع وكأنها لم تتكلم:

ـ أنت جميلة حتى وعينيك متعبتان ووجهك مغسول من التبرج.. ولأنك تملكين مثل هذه البنية فستبقين جميلة دائماً.

لم تستطع للحظات التفكير في شيء تقوله. لكن هذا لم يستمرّ طويلاً، إذ سارعت وقالت له بلهجة تحدٍ:

ـ أهنئك على قدراتك الممتازة مسيو. لكن شكوكي صحيحة، فأنا واثقة أنك قلت مثل هذا لشقيقتي منذ أقل من ساعة.

اختفت الابتسامة عن وجهه، ثم سأل بخشونة:

ـ أوضحي قصدك مدموزيل!

سألته وقد أغضبتها التعابير التي ارتسمت على وجهه:

ـ هل تنكر.. أنك بعد أن عرفت افتتان مارشا بك.. لم يخطر ببالك أن...

ولم تكن بحاجة لتضيف شيئاً آخر، لأنه فهم ما تعنيه.. قبل أن تتلفظ به.

انتظرت رده.. لكن تأججت مشاعر عنيفة في صدره، وأحسّ برغبة في خنقها.. فانطلق مسرعاً بالسيارة..

بعد لحظات، تساءلت عما إذ نجحت في إفقاده سيطرته على نفسه.. لكنّه رد على اتهامها وكاد رده يفقدها سيطرتها على نفسها بدلاً منه.

ـ مارشا مخلوقة صغيرة جميلة.. وهي في سن يسمح لها باتخاذ قراراتها بنفسها.. أليس كذلك؟

جف حلق كولين فجأة، وسألت بحدة:

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ ألم تأتِ إلى فرنسا لتتعلم.. كل.. ما تستطيع؟ فأي وسيلة لشفاء «افتتانها» أفضل من مساعدتها على المضي فيه إلى آخر الطريق؟

انفجرت بحرارة:

ـ لا يمكنك..

لكنه قاطعها:

ـ طبعاً.. ما زلت مستعداً لتبنّي الحل الذي قدمته لك ليلة أمس، هذا

إذا كنت تقبلين أن أشفيها من حبها لي بهذه الطريقة.

من الطريق الريفية الملتوية التي كانا يسيران فوقها، عرفت كولين أن هذه الطريق التي يسلكها ستوصلهما بسرعة إلى «الشاتو»، وذكّرت نفسها أن مارشا ومصلحتها فوق كل اعتبار بالنسبة إليها.

تمكنت أخيراً أن تقول:

ـ لو.. تظاهرت بأني معجبة بك، فهل أحصل على وعد منك أنك لن.. تتحرش.. بأختي؟

تلاشت ابتسامته.. وبقيت تنتظر الرد حتى توقف أمام الشاتو.. وعرفت كولين أنها ستجد صعوبة بالغة في التظاهر بأنها معجبة به، وأخذت تتساءل عما إذا كان من أولئك الذين يفون بوعودهم.. ثم قال لها بلهجة متصلبة:

ـ الله وحده يعرف كم سأجد لذة في تذويب دمك الإنكليزي البارد.. لكن أقطع لك وعداً بأني لن أحاول أبداً التقرّب من أختك.

لم تنتظر لسماع المزيد.. ولم تكن ترغب بأن يذوّب دمها الإنكليزي هذا الرجل.. خرجت من السيارة دون كلمة، وأسرعت إلى الداخل.

أمضت كولين ما تبقى من ذلك الصباح في غرفتها.. استحمت، وارتدت ثياباً جافة، ثم عرفت أنها لن تلبث أن ترى مارشا بعد قليل على مائدة الطعام، وكانت متوتّرة بسبب الخدعة التي ستقوم بها.. كيف بحق الله ستتصرف مع روجيه بوجود مارشا؟ رفضت التفكير.

لم تكن مارشا التي جاءت تستدعيها إلى الغداء، بل الخادمة الشابة إڤلين، التي استخدمت لغة الإشارات.. وبقيت كولين بضع دقائق تتحضّر نفسياً للمواجهة وهي تعرف أنها ستضطر إلى إظهار التشجيع لأي تعليقات غزلية من روجيه بوشين.. ثم تركت الغرفة.

لكن كان عليها أن تؤجل قدراتها التمثيلية قليلاً.. فحين دخلت قاعة الطعام، وجدت مارشا هناك، ولم يكن هناك أثر لروجيه بوشين.

سألتها مارشا، وهي ترفع رأسها عن الطبق أمامها:

ـ وجدك إذن؟

ـ من؟

ـ روجيه.. ومن غيره؟ رأيناك تسيرين عبر الطريق الداخلية من نافذة المكتبة.. وما إن أمطرت حتى تذكر روجيه أنك لا ترتدين معطفاً، وخرج وراءك.

ـ وهل خرج.. خصيصاً ليعيدني؟

لقد تصورت أنه كان في طريقه إلى مكان ما حين شاهدها.. وهزت مارشا رأسها إيجاباً.

ـ وهل تبللت؟

بدا من لهجة مارشا أنها لا تزال تشاكسها، فعرفت كولين أن مزاج أختها ما زال على حاله، وهذا يعني أنها لن تقبل مرافقتها إلى انكلترا.

ردت باختصار:

ـ تبللت.. من الأفضل انتظار مضيفنا.

ردّت مارشا بخفة:

ـ لن أنتظر لو كنت مكانك.. لقد خرج ليزور أحد المزارع، وأتوقع أن يتناول الغداء هناك.

صبت كولين الحساء وبدأت تشعر بالسرور لأنها غير مضطرة للتجاوب مع غزل روجيه. لكن، فجأة، زال ابتهاجها.. فإن لم يأت روجيه، فكيف لمارشا أن تستاء استياء يدفعها للعودة إلى بلادها؟

كانت قد يئست نهائياً من فكرة إعادة مارشا إلى البيت ذلك اليوم.. ولم ترَ أية فرصة لتحقيق هذا الهدف غداً، وأخذت كولين تفكّر بالمشكلة، ثم اعتقدت أنها وجدت الحلّ... فلكي تصدق مارشا بأن أختها افتتنت بروجيه بوشين.. فعلى كولين أن تظهر بعض الاهتمام به ولو حتى بغيابه.

ـ هل يتناول..

وعلق اسمه في حلقها:

- هل يتناول روجيه الغداء في الخارج دائماً؟

- يتناول وجباته معي في أغلب الأحيان..

أوحت نظراتها وكلماتها بوجود ما يشبه العلاقة بينهما، لكن كولين عرفت أن ذلك ليس صحيحاً.

وسألت:

- لكنه أحياناً يذهب إلى باريس، أليس كذلك؟

- يضطر لذلك في بعض الأحيان.. لكنه دائماً يسرع في العودة.

ابتسمت كولين:

- ومن لا يفعل هذا؟ إنها منطقة رائعة.

ظهرت تقطيبة حيرة على جبين مارشا:

- وهل... أعجبتك؟

تنهدت كولين:

- ومن يستطيع أن يقاوم؟ لا بد أن أسلاف روجيه مرهفو الإحساس وإلا لما بنوا هذا الشاتو الجميل في مثل هذا المكان..

قاطعتها مارشا دون وعي:

- وهل تفكرين في البقاء هنا؟

ابتلعت كولين جرحها.. فالواضح أن مارشا لا تستطيع الانتظار للخلاص منها.. وقالت بهدوء:

- فكرت أن أبقى لفترة، لأنني لن أبدأ دروس السكرتاريا قبل أسابيع..

قالت مارشا متعمّدة جرح أختها:

- لكنك لا تستطيعين.

- بل أستطيع.. فلا أتحمّل أبداً إغضاب روجيه.. الذي قال بنفسه إنه لن يقبل أن أقيم في أي مكان غير منزله خلال إقامتي في النورماندي.

- لكنك جئت إلى النورماندي، بسبب..

- بسببك... إذا أردت مني أن أبتعد عن هذا المكان مارشا، يجب أن تأتي معي.

- لن أفعل وحق الله!

ورمت أدوات الطعام من يدها بعنف، ثم خرجت من الغرفة.

لم تكن مارشا وحدها التي فقدت شهيتها، بل كولين أيضاً.. أحست وهي تضع سكينها وشوكتها أنها لعبت لعبة خاطئة.. فمارشا أفسدها الدلال.. لكن كولين، صاحبة القدرة على الإقناع قادرة على التدخل قبل أن ترتكب أختها الحماقات.

أدركت كولين أن شخصيتها تغيرت منذ جاءت إلى الشاتو وقابلت مالكه.. فعدا عن أنها واجهت وقاحة مارشا بحدة، فقدت سيطرتها المعتادة على أعصابها أكثر من مرة خلال مواجهتها مع روجيه بوشين.

حاولت تسلية نفسها بالتفكير في موطنها انكلترا. لكن هذا ذكّرها بأبيها الذي سيحتاج إلى وجودها بقربه فاليوم موعد إجراء المقابلة التي ستحدد إن كان سينال الترقية.. فإن سارت الرياح بغير ما تشتهي السفن، فسيتكدّر ويحتاج إلى من يتكلم معه.

ما إن أنهت احتساء قهوتها، حتى شعرت أنها أفضل حالاً.. وحين تركت المائدة، كانت مقتنعة أن هناك شيء في روجيه بوشين قد أثّر بها إذ لم يسبق قط أن شعرت بمثل هذه الثورة في داخلها لكنها حاولت إقناع نفسها بأن هذا عائد إلى بعدها عن موطنها.

دخلت كولين الصالون وقد استبدّ بها القلق، ثم جلست على مقعد قرب النافذة، وأخذت تنظر إلى الخارج حيث ينهمر المطر.. ولم يكن لديها فكرة كم من الوقت مر وهي جالسة هناك تنظر إلى الحديقة والممرات والأشجار الصغيرة وراءها.. لكن فجأة تلاشى إحساسها بالقلق، فأغمضت عينيها.. ما أغرب أن يكون لأشياء صغيرة مثل سحر

الغرفة، ومنظر الحديقة، القدرة على إراحتها هكذا...

أحسّت بدوار، فتركت رأسها يستريح على ظهر المقعد.. إنها لا تحتاج الآن إلى إشغال نفسها بالمنظر في الخارج، بل إلى التفكير.

ازداد إحساسها بالدوار لأنها وجدت نفسها تستعيد الأفكار عينها، دون أن تحرز تقدّماً.. وتعبت من استعادة المواضيع نفسها.. وأدركت أن الحل الذي اقترحه روجيه هو الفرصة الوحيدة للنجاح.

ارتسمت في مخيلتها صورة له ولعينيه الرماديتين العابثتين.. لكنها أبعدتها بسرعة.. فهو قد يسبّب لها الكثير من الأسى.. وحاولت إبعاد أفكارها بعيداً عنه، عن قصره.. وحتى عن فرنسا بأسرها.

يجب عليها أن تتصل الليلة بوالدها لتسأله كيف سارت مقابلته.. ولا بد أن يذكر مارشا، ويسألها عما إذا رأتها أم لا.. وعادت أفكارها تتجه نحو روجيه بوشين الذي ستضطر للتكلّم عنه مع والدها.. ثم نامت.

أحست بشيء يلامس بشرتها ففتحت عينيها.. كان نومها عميقاً، بحيث لم تجفل لرؤية روجيه بوشين ينحني فوقها.

ووجدت نفسها تسأل، نصف نائمة:

ـ هل عانقتني؟

رد بوقار:

ـ لم أستطع مقاومتك وأنت نائمة.

ـ أوه!

هبّت عن مقعدها.

لكنه لم يتراجع ليسمح لها بالمرور.. بل لامس جسدها جسده.. وفي اللحظة التالية، كان يلفها بين ذراعيه بلطف.. وبدأ يتمتم وهو ينظر إلى وجهها الناعس:

ـ لا يُقاوم أبداً.

لماذا لا تدفعه عنها أو تضربه؟ كان واضحاً أنه يفكر في معانقتها، فقد

بدأ رأسه ينخفض.

ما هي إلا لحظة حتى أطبقت ذراعاه عليها، وانفتح أمامها عالم جديد تماماً.. ولم تكن واثقة ما إذا كانت قد بادلته العناق أم لا.. لكن كل ما عرفته أنها أحبت الإحساس بدفئه وقوته.. لسنوات طويلة كان كل همّها أن تجعل عائلتها سعيدة وآمنة.. أما، الآن، وذراعا روجيه القويتان تلفّانها، فكانت هي التي تشعر بالأمان لأول مرة، وكم تمتعت بهذا الإحساس.

أبعدها روجيه قليلاً عنه، لينظر إلى عينين خضراوين كماء البحر، ثمّ ضمها مجدداً.. وعندما ارتفعت ذراعا كولين لتلتفا حوله، ازداد ضغط ذراعيه.. وعرفت المزيد من الأمان.

أثار عناقه فيها مشاعر لا تستطيع إنكارها، ولا تريد.. لكن ما إن بدأت تستجيب بحرية، حتى سمعت صيحة مدويّة بددت أمانها.

انتزعت نفسها من روجيه، ونظرت إلى الباب لتجد مارشا واقفة، بيضاء الوجه.. رأت الصدمة والرعب على وجهها بينما هي تهمس وعينيها على روجيه:

ـ سمعت سيارتك..

وبدا واضحاً أن مارشا لم تتأخر سوى لحظات لترتيب نفسها قبل أن تنزل مسرعة لتراه.. لقد أمضت كولين لحظات في عالم حالم، إلاّ أنها استيقظت تماماً الآن.. فالأمان الذي أحسّت به بين ذراعي روجيه تبخر دون أثر حينما ارتدت مارشا على عقبيها مختفية عن الأنظار.

لم تتأخر كولين عن اتهامه:

ـ كنت تعرف جيداً أنها ستأتي بحثاً عنك ما إن تسمع سيارتك.. وتعمّدت ترك الباب مفتوحاً.. أنت..

قاطعها برقة...

ـ ولنفترض أنني فعلت.. أليس هذا ما اتفقنا عليه.. أن نتظاهر بأننا مغرمين لكي ترانا مارشا؟

www.elromancia.com

ـ أجل، لكن..

أدركت أن من الأفضل لها ألا تخبره عن قرارها بأن لا تعطي مارشا سوى أدلة كلامية على اهتمامها وروجيه ببعضهما بعضاً.

فجأة مرت مارشا من أمام النافذة تضع يديها على وجهها وكأنها تمسح الدموع.. فقطعت كولين كلامها مع روجيه فوراً.. مارشا متألمة، وتبكي! لم تضف كلمة أخرى بل سارعت تلحق مارشا التي كانت تعدو راكضة.

تابعت الركض على الطريق الذي سلكته مارشا دون أن تلقي نظرة على النافذة.. عندما وصلت إلى نهاية المبنى، ولم تجد أختها في أي اتجاه، ارتدت على عقبيها لتسلك طريقاً لم تسلكه من قبل.. وسرعان ما وصلت إلى ممرّ مليء بالحصى، يليه ممرّ ترابي يقود إلى مجموعة من الأشجار قرب النهر.

كان تفكيرها مشغولاً باللحاق بأختها، ولا وقت لديها لإبداء الإعجاب بالجمال النضر.. لا بد أن مارشا أتت من هنا.. ولو ذهبت من طريق آخر لرأتها.

اتجهت نحو النهر.. وكانت تنظر إلى منعطف إلى اليسار، حين لمحت قميص مارشا المشرق الألوان. أرادت أن تناديها.. لكنها صمتت خشية أن تختبىء أختها، أو تركض بسرعة أكبر..

وفجأة، سمعت صرخة.. صرخة ألم كبير، جعلها تقف مسمرة.. تبع هذا عويل.. ثم سمعت صوتاً أرعبها تماماً.. صوت رشاش ماء.. وكأن أحداً قفز إلى النهر!

مزق الخوف قلب كولين وهمست: «أوه لا! رباه! لا!» وتذكرت كلمات مارشا: «إذا فعلت شيئاً لإفساد هذا عليّ.. فسأقتل نفسي»!.. وانطلقت تعدو وقد أخذ الخوف منها كل مأخذ..

***

٤ ـ... حان وقت الندم

كانت كولين تركض على طول الممر إلى النهر داعية ربها أن يكون قول مارشا «سأقتل نفسي!» مجرد كلام.. لكن حين وصلت إلى المنعطف، وجدت أنها على حق في مخاوفها.. فقد كانت مارشا في الماء. ولم تضيع كولين الوقت، فقفزت على الفور لتنقذها. لكن مارشا لم تكن راغبة أن ينقذها أحد، وصاحت عندما حاولت كولين الإمساك بها:

ـ ابتعدي عني!

لم تُصغ كولين إليها، وحاولت الإمساك بها مجدداً. ثم رأت أن مارشا التي حاولت البقاء بعيدة عنها، اقتربت من الضفة.. كانت المياه هناك أعمق بحوالى المتر.. وككلب راعٍ يحاول الالتفاف على الغنم، استدارت كولين إلى الخلف، وتحركت نحو الضفة.

انتبهت كولين إلى حركة على الضفة بعيداً عن أختها.. ولاحظت أن روجيه كان هناك.. بدا أنه لا ينوي تبليل ثيابه والغطس في الماء للمساعدة، لكنه أخذ يكلّم مارشا بهدوء وبالفرنسية.

لم تعرف كولين ما كان يقول.. لكن مهما كان، فقد كان له تأثير المعجزة على الصغيرة.. فمع أن مارشا كانت تنتحب بشكل هستيري إلا أنها سبحت نحوه وسمحت له بأن يجرها إلى خارج الماء.

كان لا يزال يكلم مارشا بهدوء حين وصلت كولين إلى الضفة. لكنه لم يوجّه كلمة إلى الشقيقة الكبرى، بل رمقها بنظرة ساخرة.. ثم ضم

مارشا بين ذراعيه واختفى مستخدماً الطريق المختصرة تاركاً كولين المشعثة تجرجر نفسها وراءهما.

لم تكن تعي ما حل بسجاد القصر من خراب بسبب قطرات المياه التي تساقطت عليه وكان تفكيرها شديد الاضطراب. ثم رأته يصدر أوامره إلى الخادمة كلير.

لم يفلت روجيه مارشا من بين يديه حتى أدخلها الى غرفة النوم، ثم إلى الحمام.. في هذا الوقت، كانت الكلمات المهدئة التي وجّهها إليها قد فعلت فعلها، فهدأت الفتاة وأخذت تكلّمه.

لكن كولين لم تتمكن من فهم ما قالته. وتقدمت تنوي مساعدة أختها الصغرى التي عادت تصرخ: «دعيني وشأني»!

ثم تذكرت تأثير روجيه في مارشا وهو تأثير يشبه السحر.. وكان واضحاً جداً أن ما رأته مارشا في الصالون لم يؤثر على افتتانها به، بل قوّى كراهيتها لأختها الكبرى.

حاولت كولين جاهدة إخفاء تعاستها، لكن مدام بوسيل دخلت لتنضم إليهم.. عندها قال روجيه بلهجة أكثر لطفاً:

ـ لماذا لا تذهبين لترتدي ملابس جافة كولين؟.. ستتولى مدبرة المنزل الأمور هنا.

نظرت كولين إلى مارشا فعرفت أنها ستبدأ بالصراخ مجدداً إن حاولت مساعدتها. هكذا، ودون كلمة أخرى، تركتهم وتوجّهت إلى غرفتها..

وما إن أقفلت باب غرفتها عليها.. حتى انهارت كبرياؤها وانهار كل شيء.. لقد حاولت أختها الصغرى أن تنتحر!

خلعت ثيابها ودخلت تحت دوش حار.. لم يسبق لها قط أن شعرت بتعاسة مماثلة وهي نادمة كل الندم على دورها في ما حدث.

جففت نفسها، وارتدت بنطلوناً وكنزة خفيفة، ثم عاودها الغضب.. ونسيت أنها لم تنم جيداً ليلة البارحة وأنها غفت بعد الغداء في الصالون.

وأقسمت أنها لن تنام هكذا بعد الغداء أبداً.. لئلا تترك المجال لروجيه بوشين أن يوقظها إلى ما بين ذراعيه.. وحين تذكرت كيف تجاوبت مع عناقه، اشتدّ غضبها من نفسها..

وخالجها كذلك إحساس بالذنب لأنها كانت على استعداد لأن تماشيه في لعبته لإجبار مارشا على العودة معها... على إرجاعها إلى الوطن بأسرع وقت.. لكن أولاً، يجب أن تراها.

لم تكن كولين واثقة وهي تفتح بابها، إذا ما كانت ستعترف بكل شيء جرى بينها وبين روجيه. وبينما كانت تهمّ بمغادرة الغرفة، رأت روجيه يتقدم في الممر، فتسمّرت في مكانها.

كان قد غيّر ملابسه التي اتّسخت حين حمل مارشا المبللة إلى الشاتو.. وابتعد تفكيرها عن أختها حين نظرت إلى هذا الرجل الذي عانقها، واحمر لونها.. عرفت لحظتها أن أعصابها كلها متوترة.. لقد اعترفت لنفسها بوجود شخص آخر في داخلها منذ عرفت روجيه بوشين.. وأن ذلك الشخص قد يجعلها تضعف مرة أخرى.

تمتم ونيرة مرح في صوته:

ـ تلك.. القفزة إلى النهر.. صغيرتي، لم تؤثر في جمالك.

ازداد غضبها، وتجاهلت إطراءه. أن يجد قفزها وراء أختها إلى النهر أمراً مضحكاً لهو أكثر مما تتحمله أعصابها المتوترة.. يجب أن تضربه.. ولحسن حظها كان روجيه قريباً منها بما يكفي لتصيبه مباشرة.

طارت يدها في الهواء وسقطت بعنفٍ على وجهه.. أحسّت أن هذا هو البديل عن أي ردّ يتوقعه. ودون أن تنبس بكلمة، اتجهت إلى غرفة مارشا، ودخلت غير آبهة لذهوله.

كانت مدام بوسيل مع مارشا، ورأت كولين أن المرأة قد وضعت أختها في الفراش بعد أن غيرت لها ملابسها.. لكن مارشا رمقتها بنظرة حقد، فعرفت كولين أن قلب شقيقتها لم يرأف بها بعد.

سألت بلطف:

ـ كيف أصبحت؟

أدارت لها مارشا ظهرها، وأغمضت عينيها. . ابتسمت المدام بوسيل لتقول باللغة المختلطة التي تتفاهمان بها:

ـ اقترح المسيو أن أعطيها منوّماً والمدموزيل الآن نائمة.

ابتسمت كولين لمدبرة المنزل. . وبالرغم من كراهيتها لكل ما يقوله روجيه بوشين، اعترفت بأن النوم قد يكون مفيداً لمارشا.

شكرت مدبرة المنزل:

ـ ميرسي مدام.

ثم ألقت نظرة أخرى على أختها وعادت إلى غرفتها.

وما إن أغلقت الباب وراءها، حتى غرقت مجدّداً في دوّامة أفكارها. . فما حدث لم يكن خطأها وحدها. . لم تكن تعرف أن روجيه بوشين سيعانقها كما فعل. . ولم تكن تعرف كذلك أنها ستستجيب للرجل المفترس بالطريقة التي استجابت بها. . لكنها لا تريد التفكير في هذا. . وحين تذكرت الأمان الذي أحسّت به بين ذراعيه، والإثارة التي اختبرتها، قررت أن هذا يكفي. لن تستطيع تحمل الدوران في حلقات مفرغة مرة أخرى. . لقد انتهى الأمر. . انتهى. . وكلما عرف روجيه ذلك بسرعة، كلما كان هذا أفضل. . ثم تذكرت كيف ضربته. . ولا شك أنه يعرف الآن أن أية خدعة حب بينهما، قد انتهت.

ثار غضبها مجدداً حين تذكرت مرحه القاسي الذي أكسبه تلك الصفعة. . وبرقت عيناها تصميماً، فالكلام الذي بدر منه يدلّ على عدم اهتمامه بمحاولة مارشا الانتحار.

حسن جداً. . إنهما لا تحتاجان إلى اهتمامه. . ففي الغد ستختلق لأختها الأكاذيب، وهي مستعدة لكل شيء حتى للقول إن والدهما مريض جداً، وإن عليهما أن تعودا إلى الوطن. . لكنها كانت تأمل أن لا يصل

الأمر إلى هذا الحد.

وعندما تذكّرت والدها، شعرت برغبة شديدة في معرفة نتيجة المقابلة. . لا يمكن أن تتصل به الآن، فهي متكدرة جداً ولا تعرف إن كانت ستتمكن من إبعاد القلق عن صوتها. . إذا حصل والدها على الترقية، فسيكون متباهياً بذلك، فكيف تعترف له بما حدث اليوم؟ وإن لم تنجح مقابلته، فكيف لها أن تزيد من اكتئابه؟

قررت أن الغد هو أفضل من اليوم للتكلم مع والدها. وحتى ذلك الوقت، ستستمرّ في مراقبة تصرف مضيفهما المتزلف، روجيه بوشين.

دخلت الصالون، فلم تعثر له على أثر. . لكنها كانت مصممة على رؤيته وإنهاء الأمر معه، فذهبت نحو باب في آخر الردهة. . إن لم تخنها ذاكرتها هي المكتبة. . قرعت الباب بخفة، ودخلت. .

كانت الغرفة فعلاً المكتبة. . لكن روجيه بوشين كان جالساً خلف منضدة ضخمة أثرية، يحدق إلى الفراغ بدلاً من أن يعمل.

تحركت ببطء. . أما هو فوقف على قدميه قبل أن تنتهي كولين من إقفال الباب. . كانت تأمل أن تبقى هادئة خلال هذه الزيارة المختصرة. لكنه أشعل غضبها حين قال:

ـ قدومك مدعاة سعادة غير متوقعة.

لن تعتذر لضربها له. . وقالت مترفعة:

ـ يشرّفني ذلك. . وسأدخل رأساً في الموضوع. . رغم أن الأمر لن يفاجئك. . أنا واثقة من هذا.

أسرعت في الكلام خشية أن يطلق ملاحظة ساخرة أخرى:

ـ بما أن. . تلك الفكرة السخيفة، أي الادعاء بأننا نميل إلى بعضنا بعضاً، كان لها مثل تلك العواقب لمار. .

وكما كانت تخشى، قاطعها قبل أن تنهي كلامها:

ـ عواقب؟

تحدثه بعنف:

ـ ألا تعتبر أن محاولتها إغراق نفسها كارثة؟

نظر إليها بذهول جعلها تجفل:

ـ تغرق نفسها؟

صاحت بحرارة:

ـ وماذا ظننت أنها كانت تفعل في النهر تحت المطر العاصف.

بدر عنه صوت ساخر.. ثم نظر إلى منضدته وقد فارقه الذهول.. لكنه بدا غارقاً في أفكاره حين رفع عينيه الرماديتين ليتفرس بها.

ـ إذن.. لهذا السبب قفزت إلى النهر بثيابك الكاملة.. لم يكن هذا جزءاً من طبيعتكم الإنكليزية الشاذة.

فجأة لان صوته:

ـ لقد ظننت أن مارشا تحاول إغراق نفسها.. لذا قفزت لإنقاذها..

قاطعته بحدة:

ـ بل كانت تحاول إغراق نفسها.. لأنها رأت.. رأت.. أنني كنت معك.. في الصالون.

عادت الابتسامة إلى عينيه:

ـ آه.. لهذا.. ضربتني.. لأنني عانقتك في الصالون؟

تصاعدت كلمات ساخنة إلى شفتيها، لكن قبل أن تتكلم رأت شفتيه تلتويان:

ـ ردّ فعلك على عناقي.. جاءت متأخرة، كما أعتقد.

لم تعد كولين تستطيع التحمل أكثر.. فردت بعنف:

ـ ضربتك لأنني وجدت تصرفك قاسياً لا رحمة فيه.. لم تهتمّ لما يمكن أن يحلّ بأختي.. ولا أستطيع أبداً تحمّل هذا.. لكن.. بإمكانك أن تكون قاسياً كما تشاء من الآن وصاعداً، لأنني سآخذ مارشا معي إلى منزلنا غداً، سواءاً أرادت هذا أم لم ترده!

والتفتت نحو الباب، ثم استدارت لأنهاتذكرت أن هناك شيئاً آخر تريد قوله:

ـ أما بالنسبة لي.. فلا أكاد أستطيع الانتظار حتى الرحيل.

بعد ساعة من هذا، شعرت بأنها هدأت وبدأت تتساءل لماذا يملك روجيه بوشين هذه القدرة على بعث الاضطراب الى نفسها. كانت قبل أن تدخل مكتبته عازمة على العودة إلى هدوئها، وعلى القول له بشكل متمدن وبأدب، أنها ومارشا مسافرتان. لكن كلامها معه، وخروجها من مكتبته كالعاصفة، لا يحملان شيئاً من الهدوء والتعقل.

اتجهت لترى ما إذا كانت مارشا صاحية أم لا، ودخلت الغرفة وهي على استعداد للانسحاب بصمت لو كانت نائمة.. أدارت أكرة الباب بحذر، وأطلت برأسها، فاستقبلتها مارشا بحدة:

ـ ماذا تريدين؟

سألتها بهدوء:

ـ كيف تشعرين الآن؟

ودخلت الغرفة.

ـ وكيف تعتقدين أنني أشعر؟ كيف تشعر أية فتاة حين تجد أختها تتغازل مع حبيبها من خلف ظهرها؟

كادت كولين تخبرها بكل شيء.. كيف أنها كانت مستعدة للمضي في خطته للتظاهر بالتجاذب بينهما. بدأت تقول:

ـ حبيبتي مارشا..

لكنها تذكرت كيف استجابت إليه حين ضمها بين ذراعيه.. وعلق ما كانت ستقوله في حلقها. فلم يكن هناك شيء من التظاهر في تجاوبها له.. ولا تستطيع قول عكس ذلك.

قالت مارشا تقلدها ساخرة:

ـ نعم كولين حبيبتي؟ هل كنت على وشك القول لي إن ما رأيته هو

مجرد خيال؟ وإنني لم أرَ..

قاطعتها كولين:

ـ لا.. لقد رأيت ما رأيت.. كنت نائمة في الصالون حين دخل روجيه، عانقني وأنا نائمة، لكن هذا لم يكن يعني شيئاً له.. ألا تفهمين أي نوع من الرجال هو حبيبتي؟ إنه من النوع الذي يغازل متى يشاء ويعبث مع من يشاء، ولا يتعامل مع أية فتاة بشكل جاد.

ردت مارشا بعنف:

ـ لم أعتقد قط إنه قديس.. لكن إن كنت تحاولين القول لي إنه لا يهتم بي، فإنسي الأمر.. لأنني أعرف أنه يهتم!.. منذ خمس دقائق فقط، أرسل مدام بوسيل لتقول لي إن عليّ عدم النهوض من السرير وقت العشاء.. وإن علي أن أستريح ما تبقى من اليوم، وأن العشاء سيُحمل إلى غرفتي.. فإذا لم يكن هذا اهتماماً بي، فأخبريني ما هو؟

كان من الممكن أن تقول كولين لها إن اهتمام روجيه هو نتيجة معرفته أنهما ليستا إنكليزيتان شاذتان.. لكن مارشا في الواقع حاولت إغراق نفسها.. مع أنها لم تقل شيئاً.. ولم تكن ترغب أن تذكر مارشا بمحاولة الانتحار.. وما إن تعودا إلى انكلترا، حتى تجعلها تتحدث عن كل شيء.. في هذه الأثناء، يجب أن تركز على إعادة الهدوء إلى نفس أختها.. لذا قالت بخفة:

ـ من يتعرّف عليك ولا يعجب بك.. مارشا؟

سألت مارشا بلهجة قاسية:

ـ وهل هذا تملّق؟

ابتسمت كولين:

ـ أقصد.. من يتعرّف عليك وقد توقفتِ عن المشاكسة، ولا يعجب بك.. والآن، إذا كنت ستتناولين العشاء في السرير، فمن الأفضل أن..

ـ أنا لن أتناول العشاء في السرير.

ـ لكنك قلت لتوك..

ـ إذا ظننت أنني باقية تاركة إياك تتناولين عشاء حميماً مع روجيه، فأنت مخطئة في ظنك!

صاحت كولين:

ـ عشاء حميم ومع ذلك الرجل؟ يا إلهي مارشا، إنه لا يعجبني حتى!

ـ ويا لها من طريقة ظريفة لإظهار هذا!

عرفت كولين أن من الطبيعي أن تقول أختها هذا بعد الذي رأته، ولم تستطع إلا أن ترد.

ـ صدقيني حبي.. ليس لدي رغبة في رؤيته مجدداً.. وقررت الا أنزل للعشاء الليلة..

حدقت مارشا بها وكأنها تحاول تبيان الحقيقة. ثم قالت:

ـ جيد..

ثم ولتُفهم أختها أنها لا تريد سماع المزيد، غاصت بين الأغطية وأغمضت عينيها.

شعرت كولين بالحيرة.. لكن في أعماق قلبها كانت تعرف أن هذه ليست اللحظة المناسبة لتقول لمارشا إنهما ستعودان إلى الوطن في اليوم التالي.. لذا قررت أن تعود إليها فيما بعد. لفّت الأغطية حول أختها جيداً، ثم عادت إلى غرفتها تفتّش عن طريقة لإقناع هذه الصغيرة..

بعد قليل سمعت قرعاً على الباب.. ثم رأت كلير تقف بالباب تحمل صينية العشاء.

ـ أوه.. لا بد أن هذه لمارشا!.

ـ نو مدموزيل.

دخلت كلير الغرفة تثرثر ووضعت الصينية من يدها.. وكانت لا تزال تثرثر حين خرجت، وقد دلّت الابتسامة على وجهها أنها لا تعترض أبداً على حمل الصينية إلى الطابق الأعلى.

لكن كولين لم تكن راضية.. فهي لم تخبر أحداً غير مارشا أنها لن تنزل إلى العشاء، كي لا يحمل إليها أحد شيئاً..

انتزعت الغطاء عن الصينية، وبدأت تأكل، وهي تفكّر كيف أن أذنها اعتادت الفرنسية خلال إقامتها القصيرة هنا.. فمع أن معظم ما قالته كلير لم يكن مفهوماً، إلا أنها فهمت أن المدموزيل مارشا قالت إن أختها لن تنزل لتناول العشاء، وأصرّ السيد على إرسال صينية أخرى إليها.. وعرفت أنها مع الوقت والكثير من الجهد، قد تصبح فصيحة في هذه اللغة كأي شخص آخر..

لم يتبقّ لها الكثير من الوقت في فرنسا.. لكن لماذا تشعرها هذه الفكرة بالألم؟ إنها لا تدري.. الأمر كله سخيف.. لماذا لا تستطيع الانتظار حتى الغد لتبتعد؟.. ودفعتها هذه الفكرة لإخراج حقيبتها والبدء بتوضيب ثيابها.. غداً في مثل هذا الوقت ستكون هي ومارشا في سريريهما.

أنهت توضيب الثياب عدا الأشياء التي تحتاجها لآخر لحظة.. لن تستطيع التأخر أكثر من هذا لرؤية أختها.. وكانت ما زالت مصممة أن تختلق أية كذبة في سبيل الحصول على النتيجة التي تتوخاها.

فتحت بابها، وكانت في منتصف الطريق ما بين الغرفتين حين سمعت صوت ضحكة طفولية فتسمّرت في مكانها. إنها تعرف ضحكة أختها المرحة من بين مئات الضحكات، كما تعرف الضحكة العميقة الصوت التي انضمت إليها.

شعرت بألم كبير.. ودون أن تعي، استدارت مسرعة إلى غرفتها وأغلقت الباب بهدوء خلفها.

أحست فجأة أنها مريضة، وجلست على سريرها، وكان عليها أن تعترف أن مارشا تضحك على نكتة قالها لها روجيه بوشين.. ولم يعجبها هذا.

شعرت كولين بالارتباك، لأنها عرفت أن ما أغضبها ليس إلاّ الغيرة..

أوه.. يا الله! ثم ازداد ارتباكها حين فكّرت في أنها ربّما تتحول إلى أخت متملكة.. وعندما مضت في تحليل مشاعرها وجدت أنها لم تكن واثقة إن كانت تغار من ضحك مارشا مع روجيه.. أم من ضحك روجيه مع مارشا!

لم تستطع كولين إجبار نفسها أن تفتح بابها مجدداً تلك الليلة لتتحقق من الفكرة الأخيرة.. دخلت كولين الفراش وهي تخطط للرحلة بعد الظهر... فهذا يعني أن أمامها الصباح كله لتوضيب أشياء مارشا، وتركها تودع من تشاء. حاولت أن تنام، لكنها لم تنم جيداً..

استيقظت باكراً.. استحمت وارتدت بنطلوناً قطنياً وقميصاً، سترتديهما خلال رحلتها.. ثم وضعت آخر ما معها في الحقيبة. نظرت إلى ساعتها، فتصورت أن مارشا استيقظت وخرجت من غرفتها.

فتحت باب غرفة أختها، ودخلت.. عندها انهارت كل خططها.. كانت مارشا مستيقظة، وتجلس في الفراش، ولكن ما إن سمعت تنفسها المجهد حتى عرفت أنها لن تذهب إلى أي مكان ذلك اليوم.. فمارشا بحاجة إلى طبيب.. ولطالما اعتنت بها كولين خلال الكثير من نوبات الربو، بحيث تعرف أنها بحاجة إلى عون طبي.. ودون هذا العون قد تصبح مريضة بشكل خطير!

***

٥ ـ يعيد النوم إلى عينيها

تقدمت كولين بسرعة إلى السرير، محاولةً إخفاء ذعرها.. كانت أنفاس مارشا الجاهدة تنبىء أنها قد تبدأ الصفير في أية لحظة.

قالت بهدوء:

ـ أنت بخير، تماسكي حبيبتي.

لا داعي لأن تتكلّم، فأختها لا تستطيع أن ترد على أي حال.

وعادت إلى غرفتها وجلبت بالوسائد عن فراشها.

عادت بعد وقت قصير جداً، وأخذت تضع الوسائد خلف رأسها:

ـ اجلسي مستقيمة حبيبتي.. وافعلي ما بوسعك لتسترخي.

تذمرت مارشا:

ـ صدري.. يؤلمني.

ـ أعرف هذا، لكننا سرعان ما سنعمل على شفائه.. اجلسي مستقيمة.. سأعود بعد لحظات.

انطلقت كولين وقدماها تطيران على الدرج.. واتجهت فوراً إلى غرفة الطعام.. لتقول مخاطبة الصحيفة الفرنسية المرفوعة أمام وجه مضيفها:

ـ أحتاج إلى طبيب..!

انخفضت الصحيفة:

ـ طبيب؟ هل أنت مريضة كولين؟

ـ لا.. ليس أنا.. بل مارشا.

ـ كانت على ما يرام ليلة أمس.

تذكرت كولين كيف كانا يضحكان على نكتة ما.. وقالت له وقد بدأ ذعرها يشتدّ مرة أخرى:

ـ هي ليست على ما يرام الآن.. إنها تعاني من نوبة ربو، وتحتاج إلى عناية طبية في الحال.

ـ وهل هي مريضة بالربو؟

إذا كان سيعترض لأن أحداً لم يفكر في تحذيره من هذا، فلا وقت لديها لتصغي إليه، ولا وقت لديها كذلك لتذكر له نبذة عن تاريخ أختها الطبي.

قالت والقلق يساورها:

ـ لم تعد مريضة.. لكنها في مشكلة الآن.. أرجوك، اتصل بـ..

عندما رأى روجيه القلق في عينيها قرر أن يتولّى الأمور بنفسه.. فقال آمراً:

ـ اذهبي إليها.. سيحضر طبيب إلى هنا بعد وقت قصير.

كان هذا كل ما انتظرت سماعه، وانطلقت عائدة تصعد السلم.. توقفت خارج غرفة مارشا، وبعد أن استعادت بعض هدوئها، دخلت.

لم تكن تتوقع رؤية أي تحسن في حالة مارشا.. ولم يكن هناك أي تحسن.. قالت آملة أن تريحها:

ـ سيصل الطبيب بسرعة.

ـ طبيب!

وأحست كولين أن أختها ارتاعت للفكرة.. ثم تذكرت.. أن مارشا تخاف من الذهاب إلى المستشفى.

قالت بهدوء:

ـ لا بأس في هذا حبي.. ستعالج هذه النوبة في الوقت المناسب.. ولن تذهبي إلى أي مستشفى.

حين حاولت مارشا الردّ، ربتت كولين يدها وطلبت إليها أن لا

www.elromancia.com

تتكلم.. دعت الله أن تكون على صواب وألا تسوء حالة أختها قبل وصول الطبيب.. وكانت لا تزال تكلمها بهدوء، حين وصل روجيه مع السيدة بوسيل.

ركزت كولين اهتمامها مجدداً على أختها التي رسمت على شفتيها ابتسامة شجاعة رداً على ما ظهر على وجه روجيه من شفقة.. بعد ذاك دبّت الحركة.. فخرجت المدام بوسيل، ثم عادت بالمزيد من الوسائد، وبعد وقت قصير، وصل الطبيب، وأرشدته مدام بوسيل إلى الغرفة.

قال روجيه: آه.. أندريه!

وتقدم يصافح رجلاً أشقر الشعر بدا أنه في ذات عمره.. وارتدّ إلى كولين.

ـ اسمحي لي أن أقدم صديقاً قديماً.. أندريه غبوسي.. آنسة كولين بوكستر.. التي تشرفنا بزيارة من انكلترا.

فكرت كولين لحظة قصيرة بكلمة «تشرفنا» ثم أمسك الطبيب يدها بحرارة وعيناه تظهران الدفء:

ـ آنشانتي مدموزيل..

وكأنما لم يعجب روجيه ما يرى، فقاطعه قائلاً:

ـ مريضتك صديقي.. هناك.

ثم دون أن ينظر إلى كولين، تركهم وخرج.

ما إن أقفل الباب، حتى ركز الطبيب مهاراته على مارشا.. ووقفت كولين تراقبه وهو يفحص نبضها ثم يضرب على صدرها.. عاد الحزن يتملكها لأنها رأت نظرة القلق تعلو وجه الطبيب لسماعه رنين صدر مارشا.

أدركت بسرعة أنه طبيب ماهر، فقد بدأ يخضع مارشا لفحص شامل ودقيق.. وكان بين الحين والآخر يرمي تعليقاً عفوياً، يدل على أن اهتمامه قد ابتعد قليلاً عن مارشا، لكنه فعلياً كان يركز كل اهتمامه عليها دون أن

تنتبه.

عرفت كولين أنه يتقن الإنكليزية.. كما عرف هو أن مارشا تتحدث لغة بلاده، وكولين تجهلها.

لكن كولين كانت واثقة أنه لم يكن يعني عدم الكياسة حين أخذ يتحدث إلى مارشا بالفرنسية السريعة. وردت مارشا بطريقة بطيئة جداً، وبأنفاس مقطوعة.. لكن كولين فهمت أن أسئلة الطبيب لم تجعل مارشا تشعر أنها أفضل حالاً.. إذ بدت وكأنها فعلاً تقاوم لترد على أسئلته المتتابعة.. وبدأ حبها لأختها يتغلب على المنطق.. وكان عليها أن تبذل جهداً لتمنع نفسها من مقاطعته والقول إنه يتعب أختها.

لهذا أحست بالصدمة حين استدار الدكتور غبوسي إليها يكلمها بلغتها، وبلطف:

ـ ربما يجب أن تتركينا مدموزيل.

وابتسم ملاطفاً، كأنما ليبرر ما قاله:

ـ وجودك هنا يسبب لأختك المزيد من الألم.

انفتح فمها بدهشة ونظرت إلى مارشا، لترى كل دلائل الكراهية مرتسمة على وجهها.

قالت:

ـ سأنتظر تقريرك في.. الصالون.

وخرجت بسرعة.

شعرت بالإحراج لإخراجها من غرفة أختها، رغم أنّها لم ترد إلاّ المساعدة. وعندما دخلت كولين الصالون، قام روجيه بوشين التي كانت قد نسيته، عن الكرسي قائلاً:

ـ هل انتهى أندريه من معاينتها؟

هزت رأسها نفياً.. ثم قالت بصدق:

ـ وجودي كان يزعج مارشا.

ـ أنت تزعجينها؟ لكن كيف؟ لقد بذلت الكثير من أجلها.. أليس كذلك؟

ـ أوه.. بلى.. انظر ماذا فعلت لها! لولا ما حدث بالأمس لما كانت في هذه الحالة الآن!

عندما قالت هذه الكلمات، تساءلت في سرّها لماذا يشتت هذا الرجل توازنها دائماً.

حدجها روجيه بنظرة ثابتة ثم سألها بلطف:

ـ أتعتقدين أن.. قفز مارشا في الماء.. هو الذي سبّب نوبة الربو؟

أثّرت فيها لهجته اللطيفة، وجعلتها تشعر بالخجل من طريقتها الجافة بمكالمتها.. وبما أنها كانت تعرف أشياء كثيرة عن الربو، قالت:

ـ على الأرجح إن تكدرها.. العاطفي.. بالأمس.. الذي وصل إلى حد الهستيريا، هو السبب.. فهي لم تصب بنوبة ربو منذ ثلاث سنوات.

ـ وهذا يدل على أنها كانت متكيفة عاطفياً.. في هذه السنوات؟

ولم يكن روجيه على استعداد للوم نفسه على ما حدث.

ـ حسن جداً.. أجل.. أعتقد هذا.

ـ وهل كانت إحدى المشاكل العاطفية هي التي تسببت بنوبتها الأولى؟

ـ ظهرت نوبتها الاولى بعد موت أمنا.

ـ وهذا يعني، الوقت الذي تحطم فيه والدك.

ردت مدافعة:

ـ هذا صحيح تماماً.

ابتسم بلطف: تماماً.

ـ لكن والدي استطاع التغلّب على أزمته عندما كانت مارشا في طريق الشفاء من آخر نوبة ربو.

تساءلت كولين حائرة مرة أخرى كم أخبرته مارشا عن حياتهم

العائلية..

وعاد روجيه إلى الكلام: وفي ذلك الوقت بدأ شقيقك، توأم مارشا، يتصرفّ بعدوانية.

اعترفت كولين:

ـ نعم.. كانت مرحلة وانتهت.

ـ وماذا عنك كولين؟

لم تتمكن من فهم ما يقصد، فسألت:

ـ أنا؟

ـ ماذا عنك وعن.. مشاكلك العاطفية؟ من ساعدك وأنت تمرين.. بالأوقات العصيبة؟

ـ مشاكلي العاطفية؟ من يستطيع تحمل مثل هذا الترف؟ من...

وصمتت، متراجعة في كلامها:

ـ يبدو هذا سخرية قاسية.. لم أكن أعني..

قال بصوت منخفض لطيف:

ـ لستِ قاسية.. أنت فقط كنت مهتمة بسائر أفراد الأسرة، بحيث لم تفكري في نفسك.

رمشت كولين عينيها بدهشة.. فلم تظنَّ أن هذا الرجل المثقف، الثري، سيقول لها مثل هذه الأشياء..

أردف:

ـ إنما عليك ألا تكبّتي عواطفك يا صغيرتي، فأنا..

صمت ما إن انفتح الباب الذي دخل منه اندريه غيوسي، أما هي فاستعادت أحاسيسها بسرعة، وأدركت فوراً كم لطّف روجيه بوشين مزاجها..

فجأة نسيته، وخاطبت الطبيب:

ـ مارشا..؟ ماذا..؟

ـ لا تقلقي مدموزيل.. ستستعيد أختك صحتها قريبا.

أرادت طرح سؤال أو سؤالين، لكنها لم تستطيع صياغتهما، لأن روجيه الذي تلاشت الرقة من صوته، سبقها إلى إطلاق سلسلة من الأسئلة بالفرنسية للرجل الذي أنزل يده المطمئنة عن كتف كولين.

رد الطبيب بالفرنسية، وهو يبتسم لكولين مجدداً.. ثم ارتد ليترجم لها:

ـ قلت لروجيه إنني وصفت دواء سيريح أختك.. والآن مدموزيل.. لدي بضع تعليمات لعلاج...

قاطعه روجيه بحدة:

ـ اعتنت مدموزيل بوكستر بأختها لمدة ثلاث سنوات.

بدا لكولين من لهجته أنه غير مسرور لأن أختها مرضت في منزله.. كادت كرامتها تدفعها للقول إن لا أحد سيحتمل أية متاعب بسبب مارشا أو بسببها. تجاهلت روجيه بوشين، لكنها وجّهت ابتسامة لاندريه.. وسألته:

ـ ما هي تعليماتك لي.. دكتور؟

ـ اسمي اندريه.. أرجوك.. وكما قال روجيه، أنا صديقه، وصديق العائلة، منذ سنوات.. هل لي أن أدعوك كولين؟

افترضت أن هذا هو أسبوع اللقاء بكل عابث فرنسي في النورماندي.. لكن حين رأت العابث الآخر يحملق بها غاضباً ثارت كرامتها مجدّداً.. من الواضح أنه لا يرغب أن يتصرّف الطبيب معها بمثل هذه الحرية وهي ليست من العائلة أبداً.

وأعطت الطبيب الإذن باستخدام اسمها الأول:

ـ بالتأكيد.. اندريه.

ابتسم الطبيب، ثم نظر إلى ساعته:

ـ لقد تأخرت عن عيادتي.

لامس ذراعها ثم أردف:

ـ لو سمحت رافقيني إلى السيارة كولين.. لأعطيك التعليمات ونحن نسير.

قال روجيه لصديقه وهما يسيران إلى الباب:

ـ المدموزيل لا تحتاج إلى أية تعليمات.

رد اندريه وهو يفتح الباب:

ـ لكن، روجيه، تطورت التقنيات الطبية كثيراً منذ ثلاث سنوات.

لم تكن التعليمات التي أعطاها الطبيب لكولين وهما في الطريق إلى السيارة جديدة عليها.. أحست برغبة في أن تخبره عن محاولة مارشا الانتحار.. لكنها سرعان ما عدلت عن رأيها، لأن ذلك يُعتبر خيانة لمارشا.

قال وهو يدخل سيارته:

ـ احرصي أن تأخذ الأقراص التي وصفتها لها.. وأن تتناول كثيراً من السوائل.. أختك مسترخية الآن بسبب الدواء الذي أعطيتها إيّاه، وسأزورها مجدداً صباح الغد.. لكن، كولين، لا ترددي في الاتصال بي إذا أقلقك شيء ما.

شكرته وتوجهت مباشرة إلى غرفة أختها حيث رأت أن الدواء الذي ابتلعته مارشا قد فعل العجائب.. كانت مذهولة قليلاً، ومسرورة، بسبب هذا التقدم الذي شهده عالم الطب لمحاربة نوبات الربو.. وتقدمت إلى السرير.

اكتشفت أن مارشا لم تعد تقاوم لتتنفس مع أنها ما زالت غاضبة من كولين.

قالت كولين بسرور:

ـ تبدين أفضل حالاً.

ردت مارشا بنجهم:

ـ لا أشعر أنني أفضل حالاً.

حافظت كولين على مظهرها المرح:

ـ سرعان ما ستتحسّنين. هل هذه هي الأقراص التي تركها لك دكتور غيوسي؟

لم تكن الأقراص مألوفة لها، ولا بد أنها جديدة في السوق لمعالجة الربو.

أردفت: «أيمكنك تناول طعام خفيف؟»

ـ لا أريد شيئاً.

طالما فقدت مارشا شهيتها وهي مريضة.. لكن ما أقلق كولين أن مارشا كانت في الماضي دائماً مذعورة ولا تتركها تغيب عن نظرها أبداً، لكنها قالت الآن فجأة:

ـ أريد أن أكون وحدي!

مازحتها كولين:

ـ حسن جداً.. سأتركك تستريحين.

وعادت مارشا إلى شخصيتها الحلوة التي تعرفها أختها، حين قالت بلهجة اعتذار:

ـ طلب إليّ الدكتور غيوسي أن أستريح قدر استطاعتي.

وافقت كولين برقة:

ـ طبعاً، يجب أن تستريحي. سيزورك الطبيب مرة أخرى في الصباح.. وإذا استرحت طوال اليوم فربما يسمح لك بمغادرة السرير غداً.

فكرت في أنها ستصحب مارشا إلى انكلترا إذا لم يكن غداً فبعد غد.. لكن مارشا وضعت حداً لأفكارها:

ـ لكن الدكتور غيوسي أصرّ على بقائي في السرير لمدة أسبوع كامل.

ـ أسبوع كامل!

ثم ابتسمت:

ـ حسن جداً.. أسبوع في الفراش لن يضير أحداً.

وضاعت كلّ جهودها لتبقى هادئة.. أمّا مارشا فقد أغمضت عينيها، وأبدت كل مظاهر الرغبة في النوم.. ودون أن تقول كلمة، تركت كولين الغرفة.

في غرفتها أخذت تفكر الى أي مدى أزمة مارشا خطرة.. ربما لهذا الدواء الجديد آثار جانبية تتطلب الراحة في السرير، إلى ما بعد انتهاء النوبة.. ثم بدأت تتساءل عما إذا كانت مارشا ستعود إلى ما كانت عليه من سوء التنفس بعد انتهاء مفعول الدواء. وفي النهاية، أدركت أن ليس بوسعها إلا أن تنتظر لترى.

يا الله! رددت كلمات «تنتظر لترى». فمنذ أقل من أربع وعشرين ساعة، قالت لروجيه بوشين إنها ستسافر مع أختها اليوم، وقبل أن تخرج من الغرفة قالت: لن أستطيع الانتظار إلى أن أرحل!

حين أدركت أنها مضطرة إلى السعي اليه شعرت بأن كرامتها في الحضيض ولكن فات أوان الندم فليتها لم تكن فظة! فبما أن مارشا مضطرة لملازمة الفراش مدّة أسبوع، فهي مضطرة الى القول له إنها لن تسافر، بل ستبقى.

أملت أن تقول ذلك لمضيفها العدواني بوقار ودون مقدمات، وستنهي حديثها معه بسرعة كالأمس...

ألقت نظرة على المكتبة، لكنها لم تجده.. كان الجزء الجبان في شخصيتها يتمنى أن يكون في الخارج كي تؤخر مواجهته.. لكن عندما ذهبت إلى الصالون، وجدته هناك.. لم يكن قد تحرّك من مكانه منذ خرجت مع الطبيب إلى سيارته، لذلك شعرت أنه كان يتوقع منها أن تتصرف بلياقة، وتخبره بما يجري في منزله. وقد تحقّقت من شكوكها حين رأت النظرة الغاضبة التي رمقها بها.

ووجدت نفسها تقول:

ـ آسفة لتأخري . . لكنني أردت أن . . أطمئن على مارشا أولاً .

نظر إليها بعداء من تحت حاجبيه المتعجرفين ، فازدادت كراهيتها له مرة أخرى . . وبدأت تمهد للقول له إنها غيرت رأيها بشأن مغادرة منزله :

ـ لقد قال اندريه إن مارشا . . قال . . إنه سيزورها غداً .

قال بلهجة قاطعة :

ـ هذا بالتأكيد غير ضروري .

ابتلعت الكلمات التي كانت ستتحداه بها . . لكنه أضاف بلهجة باردة :

ـ ربما لن يزورنا ليرى الآنسة بوكستر الصغرى . . .

خطفت ملاحظته أنفاسها . . ووجدت نفسها تقول بحدة :

ـ لا تكن سخيفاً !

ليست العجرفة كلمة مناسبة لوصف الطريقة التي انتفخت فيها فتحتا أنفه . . الواضح أن ما من أحد أبداً تجرأ على القول إنه سخيف . .

ـ سخيف ! أتعتقدين أن اهتمامه ينحصر بصحة أختك ؟ . . ألا تستطيعين أن تلحظي متى ينجذب رجل إليك ؟

ردت ببرود :

ـ أعرف أن من الطبيعي جداً للرجال الفرنسيين أن يعبثوا . . مسيو .

ولم تستطع مقاومة مهاجمته :

ـ سمعة الفرنسيين تسبقهم .

ردّ دون أن يُشعرها أنها انتقمت منه :

ـ وكلانا يعرف أن خبرتك مع رجال بلادك قليلة ، لذا هل لي أن أقترح مدموزيل أن نتفحص الوقائع التي تعرفينها ؟

لم تفهم ماذا يعني . . ولم تعرف كيف ترد . هل يشير بهذا إلى سمعة مواطنيه ؟ أم تراه يقول إنه يشك في قدرتها على معرفة العبث من التجاذب الحقيقي ؟

قالت وهي لا تزال جاهلة قصده :

ـ أجل . . حسن جداً . . نحن نبتعد عن موضوعنا ! فلم آت لأناقش هذا معك .

أغضبتها نظرته المتعجرفة ، وكأنما أراد أن يقول لها إنه هو الذي يحدّد متى تنتهي النقطة التي يتناقشان فيها . .

كانت كرامتها تحثها أن تترك الصالون وتخرج إلى سيارتها وتقودها مبتعدة ، لكنها تابعت :

ـ كل ما في الأمر هو . . أن مارشا أُمرت بملازمة الفراش . أعرف أنني كنت فظة معك بالأمس . . حين قلت إنني لا أستطيع الانتظار لأرحل .

حاولت الاعتذار بقدر ما تسمح به كرامتها :

ـ لكن . . إذا كنت لا تمانع ، أرغب في البقاء لأعتني بأختي .

كرهت نظرته المتعالية المتعجرفة وهو يقول لها بلهجة جافة :

ـ هذا طبيعي . . ستبقين هنا معها .

تمتمت : «شكراً لك . . أنا لا أريد إزعاج أحد . . وبما أن العناية بمارشا لن تأخذ كل وقتي ، فسأعمل على مساعدة السيدة بوسيل في أي . . » .

قاطعها بحدة :

ـ أنا أدفع أجور الخدم للقيام بالأعمال المنزلية . . ومن الأفضل توظيف وقتك ، مدموزيل بوكستر ، لتشفى أختك في أسرع وقت ممكن .

بسبب هذه اللهجة الحادة ، غادرت كولين الصالون بسرعة . . هذا الرجل لا يطاق . . لماذا غضب حين عرضت مساعدتها ؟ لكنها فهمت من ملاحظته المتعلقة بشفاء مارشا بسرعة أنه يرغب في الخلاص منهما معاً ، ما إن يعلن الطبيب أن مارشا قادرة على السفر .

كانت تغلي من الداخل دون أن تعرف السبب . ثم ذهبت تفتش عن المدام بوسيل ووجدتها في المطبخ الذي يبلغ حجمه أربعة أضعاف مطبخ

منزلهم. وهناك استقبلتها مدبرة المنزل بابتسامة ترحيب، فتبخر غضبها واقترحت أن تتناولا معاً القهوة في المطبخ بينما تشرح بعض الوقائع عن مرض مارشا.

حول القهوة، أفهمت كولين مدبّرة المنزل، بكلّ لباقة، أن على مارشا أن تأكل القليل وفي أوقات منتظمة.. ولأن أختها فقدت الشهوة الى الطعام، طلبت من المدام بوسيل أن تسمح لها بتحضير وجبات تعرف أن مارشا تحبها.

ابتسمت مدام بوسيل:

ـ طبعاً.

وأضافت أن كلير أو إڤلين ستحملان الصينية إليها.

ابتسمت كولين:

ـ لا، مدام بوسيل.. ميرسي.. بل سأحملها.

أنهت قهوتها وشغلت نفسها بصنع القليل من البيض المخفوق مع التوست.

منذ ذلك الوقت، لم تسترح كولين.. فالأقراص التي تركها الدكتور غيوسي كانت تصنع العجائب وتبقي تنفس مارشا في أفضل حال.. لكن لم يكن الطب قادراً على تغيير مزاج أختها التي هي مريضة صعبة المراس.

وقت الغداء غيّرت مارشا ترتيباتها فبعدما أصرّت على كولين قبل قليل على تركها بمفردها أصرت أن تتناول وجبات طعامها معها.. وبما أن هذا يناسب كولين، لم تعترض على النزول مجدداً إلى المطبخ والطلب من مدام بوسيل أن ترسل طعامها مع طعام مارشا.

وتناولت العشاء أيضاً في غرفة مارشا.. وأخيراً وبعد أن حضرتها للنوم، خرجت من غرفتها.. وهي تشعر بإرهاق عاطفي وجسدي.

كانت وسائد جديدة قد وضعت في مكانها على السرير في وقت ما خلال النهار.. ولأنها متعبة لم تتأخر في دخول الفراش. لكن ما إن ألقت

برأسها على الوسادة، حتى استيقظت مجدداً.

أحسّت أن القلق هو سبب أرقها، ومرت ساعتين دون أن يزور ملك النوم عينيها.. كلّ هذا بسبب لهفتها على مارشا.. بالطبع! فهي لم ترَ روجيه منذ مغادرتها الصالون ذلك الصباح.. لكنها تعرف تماماً أن لا علاقة له بلهفتها، وأنّها تفضّل أن لا تراه أو تسمعه مرة أخرى.

دقّت الساعة الواحدة، وكانت صاحية.. ولأنها تعرف أن حالة مارشا تتأزّم في الساعات المتأخرة من الليل، خرجت من الفراش وتسللت إلى غرفتها.

تركت باب الغرفة مفتوحاً وأصاخت السمع.. لحسن الحظ كانت أنفاس مارشا منتظمة وطبيعية.

في الساعة الثالثة، وهو أسوأ الأوقات بالنسبة لمارشا، خرجت كولين من السرير مجدداً.. مرة أخرى تسللت بصمت إلى غرفة أختها.. وكما في المرة السابقة، لم تسمع إلا صوت تنفس شخص غرق في نوم مستقر عميق.

خرجتْ من الغرفة، ولما سمعت صوتاً من مكان ما في الرواق. رفعت رأسها مذعورة، ووعت فجأة أنها لم تكن أن ترتدي روبها.

تقدم روجيه الذي كان حافياً ليسأل:

ـ هل كل شيء على ما يرام؟

همست: «لم أقصد إزعاج أحد.. كنت أتفحص مارشا، لكن حالتها جيدة».

كان روجيه يقف أمامها مباشرة.. فجأة، أحست بعينيه على شعرها الذي شعّثه النوم على الوسادة، وأحست أنها تقف دون دفاع في فستان نومها القطني.. ثم ابتسم، ولم يكن متعجرفاً أو بارداً.

تمتم: «ارجعي إلى سريرك، كولين الحلوة».

وطبع قبلة ناعمة على خدها:

ـ لا تقلقي.. نومي خفيف.. وسأترك بابي مفتوحاً لأصغي إلى مارشا.

أحست أنها منوّمة مغناطيسياً.. وظنّت أن السبب هو تعبها أكثر من أي شيء آخر.. ثم ارتدت بسرعة ونفذّت ما أُمرت به.

بعد دقيقة من دخولها إلى الفراش، ويدها على خدها الذي قبّله روجيه، غفت كلمح البصر.. ولم يكن لديها فكرة أنها نامت والابتسامة على وجهها.

***

٦ ـ مشاعر خطرة

في الصباح التالي، استيقظت كولين من النوم على قرع الباب.

سألت الخادمة أڤلين التي دخلت الغرفة:

ـ كم الساعة الآن؟

ثم تذكرت أن الفتاة لا تتكلم الإنكليزية.

وقالت أڤلين بابتهاج:

ـ بون جور مدموزيل.

ثم وضعت صينية الفطور على ركبتي كولين التي جلست في السرير.

ـ صباح الخـ.. بونجور أڤلين.. ميرسي.

أرادت أن تقول إنها لا تريد تناول الفطور في السرير، لكنها لم تستطع إفهامها ذلك... وحين أزالت الغطاء عن الصينية تولاها العجب لأنها رأت أن الفطور مؤلف من لحم وبيض، على الطريقة الإنكليزية.

أضاءت وجهها ابتسامة.. وفجأة أحست بجوع شديد.. هل المدام بوسيل هي من أرادت تقديم هذه المعاملة المميزة؟ أم أن روجيه أمر بتحضيره خصيصاً لها؟ ثم تذكرت تصرفه معها في الساعات الأخيرة من الليل.. ورفعت يدها تلامس خدها وهي تتذكر قبلته الناعمة الدافئة.. أخذ إحساس بالدفء نحوه يتحرك داخلها. وعرفت أنه هو المسؤول عن وصول الفطور الإنكليزي لها في السرير. لكن لماذا أصبح لطيفاً معها؟ لم تستطع الإجابة.. ظلّ الإحساس بالدفء يسيطر عليها حتى حين ذهبت لتستحم.. كانت قد انتهت من ارتداء ملابسها حين وجدت تفسيراً لما

www.elromancia.com

حدث .. وتلاشى عندئذ هذا الشعور بالدفء.. رأت أن ليس من المستبعد أن يكون روجيه قد سمع عن رحلاتها المتكررة من فوق إلى تحت من أجل مارشا بالأمس.. ولهذا أرادها أن تتناول فطوراً غنياً بالوحدات الحرارية لتنشيط يومها.. هذه هي طريقته لكي يضمن عدم انهيارها من نقص الغذاء.

دخلت إلى غرفة أختها، متجهمة لأنها تعرف أي نوع من الأيام ينتظرها.

سألتها مارشا متذمرة: «أين كنت؟».

ردت بهدوء:

ـ استغرقت في النوم.. وآسفة لأنني جعلتك تنتظرين لتناول الفطور.. سأنزل فوراً..

ـ لقد تناولت الفطور.. أخذت أقلين الصينية منذ وقت طويل.. لكنني ضجرت.

قالت كولين بابتهاج:

ـ وهذا يعني.. أنك أفضل حالاً.

مارشا لا تطاق حين تضجر.. لكن كولين ابتسمت بهدوء وأخذت تصغي إلى تذمر أختها:

ـ أشعر أني في حالٍ سيئة.

رتبت كولين لها السرير، ثم أعطتها قرص الدواء. بعدها، نزلت إلى المكتبة، في الطابق الأسفل، وأحضرت عدة كتب.. لكن أياً منها لم يعجب أختها.

قضت كولين فترة قبل الظهر تعتني بأختها... فقد نزلت صباحاً إلى المطبخ لتحضير السوائل المنعشة التي تحتاجها مارشا، ثم حضرت لها وجبة خفيفة حوالى الساعة الحادية عشرة، وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً حين رافقت إقلين اندريه غيوسي إلى الغرفة.. لم تكن كولين

راغبة في أن تطرد من الغرفة اليوم كما حدث بالأمس، لذا انتظرت إلى أن كلمته مارشا بالفرنسية، ثم نزلت تنتظره.

لم يمض على انتظارها في الصالون سوى بضع دقائق حتى جاء يبحث عنها.. عرفت من الابتسامة على وجهه أنه غير قلق على مريضته، لذا لم تندهش حين ردّ على سؤالها عن مارشا:

ـ سرعان ما ستخرج من السرير بصحة وعافية.

ـ متى.. دكتور؟

نظر إليها بتوبيخ:

ـ دكتور؟ ظننت أننا صديقان كولين.

استدركت: «اندريه».

ولم يعطها فرصة لتسأل عن حالة أختها وعما إذا كانت فعلاً بحاجة إلى أسبوع في السرير، فقد ابتسم قائلاً:

ـ هكذا أفضل.. والآن فلنتكلّم في أشياء هامة.. هل سنخرج معاً للعشاء هذا المساء؟

أجفلتها هذه الطريقة السريعة، لكنها استجمعت نفسها بسرعة:

ـ أنا.. آسفة اندريه.. تريد مارشا أن أتناول كل وجبات الطعام معها.. وأنا لا..

بدأ يناقش:

ـ لكنها ليست مريضة إلى هذا الحد..

وقاطعه صوت آخر:

ـ كما قلت اندريه.. الآنسة بوكستر مخلصة لأختها.

رد اندريه:

ـ أفهم هذا طبعاً.. لكن لا داعي...

قاطعه روجيه مجدداً:

ـ إذن لا تحاول منعها من تأدية واجباتها.. فلن يستمتع أحد منكما

بوجبة طعام في مثل هذه الظروف.

ثارت كرامة كولين بعنف.. قد تكون مفرطة الحساسية قليلاً، لكن بدا لها أن روجيه بوشين يرفض بشدّة أن يصحبها اندريه غيوسي إلى أي مكان.. حسن جداً.. لا داعي لأن يقلق على أي حال، فهي لا تنوي العشاء مع مواطنه العابث، فتجاهلتهما معاً.. وتركتهما يتجادلان.

وضعت على وجهها قناعاً من البهجة وهي تذهب فوراً إلى غرفة أختها:

ـ قال لي الطبيب إنك سرعان ما تشفين.

سألها مارشا بحدة:

ـ وماذا أخبرك أيضاً؟

خافت كولين أن تثير قلق أختها.. فردت بخفّة وصدق:

ـ هذا فقط.. فقد انضم روجيه إلينا قبل أن أسأله الكثير.. وتركتهما حين بدأ بمناقشة شيء آخر.

سألت بعجب:

ـ اندريه.. هه!

ابتسمت لمزاح أختها:

ـ آه.. اصمتي!

تغير مزاج مارشا بسرعة، ولم يمض خمس دقائق حتى كانت تتذمر من أنها ضجرة حتى الموت.. لكن هذا المزاج سرعان ما تغير فجأة حالما دخل روجيه بوشين ليتفقدها.

اعتذرت كولين بطريقة فظّة، ونزلت إلى المطبخ لتحضير الغداء لها ولمارشا.

تعمّدت إبقاء أفكارها بعيداً عن روجيه. كانت تعرف تماماً أن مارشا ستموت ضجراً بعد أن ينهي زيارته، وركّزت اهتمامها على ما يجب أن تفعله لتسلية أختها.

تركت كولين المطبخ وهي تحمل صينية مارشا. إذا سارت الأمور كما تريد، فقد تعود وأختها إلى الوطن قبل وصول البطاقة البريدية إلى أبيها. توجّهت إلى الردهة الواسعة، فلمحت كلير قادمة من الجهة الأخرى، كانت تفكّر بالتحية التي ستلقيها عليها حين تمرّ بها.

لكنها لم تلتق بها.. فما إن مرت كولين التي تحمل الصينية بباب الصالون، حتى ارتفع صوت مزّق هدوء المكان.. نظرت إلى اليمين هلعة، وذهلت حين رأت روجيه يقف هناك ونظرة غضب صرف على وجهه.

حدث كل شيء بسرعة.. في لحظة كانت تحمل صينية الطعام.. وفي التالية، أخذ روجيه الصينية منها وأعطاها لكلير، وكأنّه قد استنفد صبره معها.. تحركت كلير بناء على تعليماته نحو السلم تحمل الصينية، ولم تستطع كولين أن تحتجّ.. فقد أمسكتها يد ثابتة بذراعها وجرتها إلى الصالون.

أغلق روجيه الباب بعنف، فعرفت أنه لم يكن راضياً كثيراً. لكنها لم تكن راضية هي أيضاً فانتزعت ذراعها من قبضته.

ـ ماذا..

ولم تستطع أن تكمل.. فقد قال راعداً:

ـ يكفي! لقد تحملت ما فيه الكفاية! لدي خدم قادرون على تجنيبك كل هذا العناء.. من الآن فصاعداً ستتوقفين عن النزول والصعود على السلم طوال اليوم.. كما سأبعدك كذلك عن المطبخ، لتسمحي للخدم بأن يأخذوا إلى أختك ما يلزمها.

ذهلت كولين لأنه يطلب الابتعاد عن المطبخ.. فهي متأكدة أن مدام بوسيل لم تتذمر، وبدأت الكبرياء تمتزج مع الغضب.

قالت: «لدى خدمك ما يقومون به.. وليس من الإنصاف أن يهتموا بمارشا أو بي.. أضف إلى ذلك أنني لا أشكو من شيء، وبإمكاني القيام

بهذا. . ».

ـ ألم تفهميني مدموزيل؟

ـ فهمتك تماماً مسيو. . لكنني ما زلت أفضل. . .

قاطعها بصوت عاصف وهو في قمة غضبه:

ـ إذن افهمي هذا كذلك مدموزيل. . إما أن تستطيعي، وإما أن أرسل مارشا إلى المستشفى!

ـ المستشفى! لكنها تكره المستشفيات!

لم تعرف كولين ما قد يكون رده، لأن جرس الهاتف رنّ.

لم ترد أن تعترف بالهزيمة فنظرت إليه بتحد. . لكن حين تقدّم ليرد على الرنين المتواصل عرفت أنه يعتبر أن حديثهما قد انتهى. . وأنها ستضيع وقتها لو بقيت في انتظار نهاية مكالمته.

كانت غاضبة منه بقدر ما كان غاضباً منها. وسارت نحو باب الصالون. . لم تكن ترغب في الاعتراف بالهزيمة. لكن حتى ولو كان يخادع، فهي تعرف أنها لن تجرؤ على قبول تحديه. . فالله وحده يعرف ماذا يحلّ بمارشا إن أُرسلت إلى المستشفى.

فتحت كولين الباب وكانت في منتصف الطريق لتخرج حين ناداها روجيه، الذي سيطر على غضبه:

ـ المخابرة لك. . مدموزيل.

ارتدت فجأة لتراه يمد لها يده بالسماعة. . لكنها لم تعرف من يتصل بها. . وتقدمت دون أن تنظر إليه، وأخذت السماعة من يده:

ـ آلو.

تلاشى كل أثر للغضب من نفسها. . ودهشت كثيراً حين عرفت الصوت، بحيث لم تع أن روجيه تقدم إلى الباب ليقفله.

قال صوت أبيها مَمازحاً:

ـ فكرت أن من الأفضل أن أتصل لأتأكد أنك تبتعدين عن أي

«شيطنة»، مارشا.

صاحت كولين بسعادة:

ـ أبي! أنا لست مارشا. . أنا كولين!

صاح عجباً:

ـ كولين! حسن جداً! سألت عن الآنسة بوكستر. . إذن لقد وصلت إلى ايكارتيڤيل. . وزرت مارشا؟

ـ هذا صحيح!

بدأ القلق يراودها، ولكنها لا تستطيع إخباره بأي شيء مما حدث. . لأنه سيقلق كثيراً. . لذا أبقت في صوتها نبرة الفرح:

ـ في الواقع. . سأبقى في الشاتو مع مارشا لبضعة أيام. . حين عرف مسيو روجيه بوشين أنني في النورماندي كان لطيفاً فدعاني إلى الإقامة هنا.

ـ هل الشاتو. . مكان لطيف؟

ـ بل رائع، إنه أجمل مكان رأيته. . البناء بحد ذاته حلم. . وهناك الحدائق الرائعة والأشجار. بل هناك نهر يتدفّق. .

أحسّت برجفة ألم لذكر النهر، لكنها أسرعت تكمل:

ـ لكن الأهم الآن أن أعرف ما سارت عليه المقابلة، وحسب رنّة صوتك. .

ـ لقد عرفت! ولأقول الحقيقة، هذا سبب اتصالي. . لقد حصلت على الترقية، وكنت أتوق لأخبار أحد. . . فلا أحد هنا أخبره.

أوه. . يا للحبيب العزيز! وهنأته. . لا بد أنه يشعر بالحماس ويتوق ليشارك فرحه مع شخص آخر. . لكن ما من أحد من أولاده كان معه.

أكملا الحديث عن الترقية، وأخبرها أنه سيستلم منصبه الجديد ابتداء من أول تشرين الأول. ثم سألها:

ـ أين طفلتنا على فكرة؟

ما زال يدعو مارشا بالطفلة مع أنها أصبحت شابة وهو يحبها رغم

جنونها في بعض الأوقات.. وهذا ما جعل كولين أكثر تصميماً على إخفاء ما حدث لأطول مدة ممكنة.

قالت بمرح:

- إنها في مكان ما.. لكنك تعرفها، فإذا ذهبت لأفتش عنها حيث أظنها موجودة، فسأجدها في مكان آخر.

- لا داعي لهذا.. طالما هي بخير.

- هل وصلك شيء من مارك؟

رد بصوت ملؤه بالحب:

- لا.. سيعود متى كان مستعداً.. وأعتقد.. أنه سيكون مفلساً.. وجائعاً.

- على ذكر الجوع.. هل تأكل جيداً؟ هناك طعام في الثلاجة يكفيك حتى أعود.. لكن لا تذهب..

قاطعها والدها، وفي صوته عدم الراحة:

- أوه..

ثم تنحنح قبل أن يكمل:

- .. لن أموت جوعاً.. أنا.. سأخرج مع أرملة تعمل في المختبر للعشاء الليلة.

بما أن والدها نادراً ما يخرج في الأمسيات، وبما أنه لا يهتم كثيراً بالجنس الآخر، فقد ذهلت كولين ولم تستطع الرد.

قاطع الصمت القصير:

- أنت لا تمانعين.. أليس كذلك؟ أعني.. المكان هنا هادىء جداً دون وجود أحد منكم و...

استوعبت بسرعة ما قاله والدها، وقاطعته لتقول:

- أوه.. أبي.. ليس هناك من هو أسعد مني!

قالت هذا بحماسة وكأن مارك سيخرج لأول موعد له مع فتاة..

والدها سيبلغ التاسعة والأربعين.. بحق الله؟

- استمتع بوقتك حبيبي.. أنا.. نحن.. سنعود قريباً إلى المنزل.

وضعت كولين السماعة، وفي نفسها سعادة وأمل.. الآن خرج والدها من عزلته، بدأ يعيش حياته مجدداً.. إنها تعرف أن السعادة لا تأتي دفعة واحدة.. لكنها البداية.

ارتدت فرأت أن روجيه في الغرفة.. لكنها كانت سعيدة جداً بحيث لا يمكن لغضبها منه أن يعود.. وبدا أن غضبه تبخر كذلك.. نظر إلى عينيها البارقتين وقال بصوت رقيق:

- لقد أسعدتك مخابرة والدك كثيراً.. كولين.

نسيت كم كانت غاضبة منه، وابتسمت:

- كثيراً.. فهو حصل على ترقيته.. ولأول مرة منذ ستّ سنوات، أي منذ وفاة أمي، يخرج مع سيدة للعشاء.

- لا يبدو من عينيك، ومن تعابير وجهك، أنك تعترضين على هذا التحول في حياته.

ابتسمت بسعادة:

- أبداً.. إنه لا يخرج أبداً.. لذا...

قاطعها برقة:

- بمناسبة الكلام عن الخروج.. هل تنشقت الهواء الطلق منذ وقوع أختك في النهر؟

بدأ سرورها يضعف حتى قبل أن تسمعه يغير الموضوع.. وما إن سمعت كلماته حتى اختفى سرورها كلياً.

سألت ببرود:

- وقعت.. مسيو؟

سأل بإصرار:

- هل خرجت؟

بدأ إصراره يزعجها، لكنه بدا مصمماً على سماع ردّها:

ـ كنت أنوي أن «أخرج» بعد ظهر اليوم.. لطالما كان البقاء في السرير مزعجاً لمارشا لذا فكرت أن أذهب إلى المتاجر المحلية، لأجد ما يريحها من ضجرها.

كانت ستخرج من الصالون، لكنه ابتسم وقال:

ـ سآخذك إلى القرية.

ردت بسرعة:

ـ أوه.. لا داعي لهذا.. معي سيارتي، وأنا واثقة أنني سأجد طريقي بسهولة.

أظهر الجاذبية التي رأتها منه من قبل:

ـ واثق من هذا.. لكني، أتساءل.. أيمكنك يا صغيرتي أن تطلبي لعبة ألغاز بالفرنسية؟ أعتقد أن فرنسيتك لن تساعدك.

عرفت أنه على صواب، ثم تغلّب سحره على حبّها للجدال..

وضع يده على ذراعها، وقادها إلى الباب قائلاً:

ـ أرجوك.. كوني مستعدة في الساعة الثانية.

أدهشها تحول الأحداث، وصعدت السلم ببطء. وكانت قرب باب مارشا، حين اعترفت لنفسها أنها لا تمانع كثيراً في فكرة الذهاب مع روجيه للتبضع.

سألتها مارشا بتحدٍ:

ـ ماذا حدث لكي تبدو الحماسة على وجهك بهذا الشكل؟

تطلعت كولين حولها فوجدت أن السلطة التي حضرتها لغدائها، أوصلت إلى غرفة مارشا.. جعلتها لهجة أختها الغيورة لا تفكر مطلقاً في إخبارها أنها كانت تتحدّث مع روجيه.

ـ ولماذا لا أتحمّس؟ لقد اتصل أبي للتو.. كانت مقابلته جيدة.. وعُرض عليه إدارة القسم الذي يعمل فيه.

كانت سعادة مارشا مماثلة لسعادة أختها.. وفيما كانت كولين تأكل، رددت الكثير مما جرى بينها وبين أبيها في المخابرة.. لكنها كانت تعرف أن أختها تشعر بالتملك حيال من تحبهم، لذا كانت حذرة جداً وهي تخبرها عن موعد أبيها مع المرأة التي سيخرج معها.. لكن لم يكن هناك داع للقلق لأن مارشا كانت تبتسم وهي تصيح:

ـ يا للعجوز! هل سأل عني؟

ـ طبعاً.. لقد اتصل ليتكلم معك في الواقع.. لكنني لم أستطع أن أقول له.. إنك.. طريحة الفراش.. ولم أقل له.. إنك.. متعبة.

وافقتها الرأي وهذا ما أدهش كولين.

ـ هكذا أفضل بكثير.. تعرفين أنه يكون كالدجاجة العجوز أحياناً.. السبب الوحيد لرفضه مجيئي إلى فرنسا اعتقاده بأنه لن يكون لدي من يعتني بي فيما لو أوقعت نفسي بالمشاكل.

كانت اللحظة مناسبة جداً لسؤال أختها بلطف عن الطريقة التي حاولت فيها إغراق نفسها.. وأحست أن من الأفضل أن تفصح عمّا في نفسها.

ـ بمناسبة الحديث عن المشاكل..

تحوّلت ابتسامة مارشا إلى نظرة غضب:

ـ لا..!

وبدا واضحاً أنها لا تريد مناقشة حالتها العاطفية.

لذا لم تكمل كولين.. فهي تعرف مارشا.. وتعرف مرضها، وتعرف أن عليها ألا تكدرها لئلا تسوء حالتها مجدداً.

ـ حسن جداً.. عمّ تحبين أن نتكلم؟

ردت بغضب: «لا شيء».

وتغير مزاجها بسرعة.. لكن حين أخبرتها كولين أنها تفكر في الذهاب إلى القرية لتجد لها ما تتسلى به، بدأت بلمح البصر تعطيها

التعليمات لشراء نصف دزينة من الأشياء التي لا تستطيع الاستغناء عنها.

كان روجيه بانتظارها، وأصعدها باحترام إلى السيارة قبل أن يستدير ليجلس وراء المقود. لم يتكلم كثيراً على الطريق.. وبدا راغباً في أن يقود بصمت.

كانت القرية أكبر مما توقعت.. توقفا خارج أحد محلاّت بيع اللحم ومشتقاته. وعندما كان يوقف السيارة تطلعت كولين إلى واجهة المحل التي كانت مليئة بالنقانق الرفيعة الطويلة المعلقة إلى جانب أخرى سمينة، وبمختلف أنواع «الباتيه» المصفوفة جنباً إلى جنب.. فجأة بدأ الحماس الذي شعرت به منذ يومين، يعود إليها مجدداً.. إنها في فرنسا.. فهل من الخطأ، أن تنعّم بهذه التجربة، ولو لوقتٍ قصير؟

ركّزت نظرها على أنواع اللحوم المعروضة بمختلف الأشكال.. ثم أحست أن روجيه جاء ليقف إلى جانبها، ويتحقق مما استرعى اهتمامها.

دون أن تعي، ابتسمت له ببراءة، فردّ ابتسامتها. بدا وكأنه يرغب بقضاء اليوم كله معها.. إذ لم يبد مستعداً لإبعاد نظرته عن وجهها. عندها خطر ببالها أن من الأفضل أن تشتري ما تحتاجه، كي تعود بسرعة إلى مارشا.

أخرجت لائحة المشتريات من حقيبتها.

ـ تحتاج مارشا إلى...

انتزع روجيه اللائحة من يدها. وقال:

ـ ربما من الأفضل أن أتولى أمرها.

حين رافقها روجيه إلى محلٍ لبيع الصحف، شعرت كولين بسعادة غامرة واختارا معاً مجلات لتتسلّى بها مارشا، وازدادت بهجتها حين لمح روجيه لعبة ألغاز، ورفعها بشكل مضحك.. هزّت كولين رأسها.. لكن عندما رأت عينيه الضاحكتين، انفجرت ضاحكة.

خبا شيء من سعادتها حين لمّ يسمح لها بدفع أي غرض من

المشتريات.

احتجت قائلة: «لكنني مصرة!».

ـ ابتسمي لي.

ودفع المبلغ، رغم احتجاجها.

وفي المتجر التالي رفض أيضاً أن يسمح لها بدفع شيء. لذا كانت عابسة وصامتة حين رافقها إلى السيارة.

لكن حين رأته يسلك طريقاً غير تلك التي جاءا منها، اضطرّت إلى القول ببرود:

ـ تخطيت المفرق.. مسيو.

رد بمرح: «لم أتخطه.. ألم أقل لك.. أنا مضطر لزيارة أحد المزارع؟».

كان يعرف جيداً أنه لم يقل لها.. أمّا هي فكانت تشعر بالغيظ لعجزها عن فعل شيء، وكانت على وشك أن تسأله كم ستطول زيارته. حين قال فجأة:

ـ أنت تنادين صديقي الطبيب باسمه الأول.. فلماذا ما زلت أنا «مسيو»، كولين؟

إذا كان يقصد إحباطها، فقد نجح، فهو لا يدعوها إلى استخدام اسمه الأول فحسب، بل يقول إنها أهانته بعدم استخدامه!

اكتشفت أن زيارتهما للمزرعة لم تستغرق وقتاً طويلاً. فعندما قرع روجيه على الباب لم يرّد عليه أحد.

اقترحت، وقد بدأت حدّتها تخفّ:

ـ ستتمكن من الاتصال بهم هاتفياً حين تعود إلى المنزل.

قال روجيه:

ـ أوه.. لن يكونوا بعيدين عن المنزل.. ولسوف نتمشى قليلاً بانتظار عودتهم.

كان الممر ضيقاً، فاضطرّت للالتصاق بروجيه لتستطيع المشي. . كانت تظن أنّهما سيسيران بصمت، لكنها اكتشفت أنها مخطئة، إذ بادرها روجيه قائلاً:

ـ الطقس جميل. . ألا تعتقدين هذا؟

أجابت:

ـ أتحاول السخرية مني؟

أجاب وكأنه لا يعرف عم تتكلم.

ـ أسخر منك؟

ـ كنت أعتقد أن الإنكليز مصابون بجنون الحديث عن الطقس.

رد بخفة:

ـ استنتجت من خلال زياراتي المتعدّدة لبلدك، أن طقسكم لا يستحق أي تعليق.

أعجبها رده، ولم تستطع أن تخفي ابتسامتها.

ـ لا تكن معتداً بنفسك هكذا! فمنذ وصلت إلى هنا والسماء تمطر بلا توقف.

ـ مع ذلك تجدين المنطقة جميلة! لقد سمعتك تقولين لوالدك، والصدق في صوتك، كم تجدين منزلي جميلاً.

لم تعرف بما تردّ عليه، لذا اكتفت بتوجيه ابتسامة ساحرة له.

قال بعدما سارا بضع ياردات أخرى:

ـ ما دمت تتمتعين بجمال الشاتو والحدائق المحيطة به فلماذا لا تؤخرين سفرك؟

أجفلها قوله فاصطدمت به. . أمسك بذراعها، وبقي ممسكاً بها حتى بعد أن حاولت الابتعاد عنه.

قالت بعد أن استعادت أنفاسها:

ـ أنت تقترح أن. . أن. . أطيل. . عطلتي؟ لكنك لا تريدني هنا!

تحداها روجيه:

ـ ومتى قلت هذا؟

ـ ربما لم تقل بالكلمات. . لكن. .

أحست أنها ستكون الخاسرة في أي جدال. . فاقتنعت بالقول:

ـ ماذا يهم؟ ما إن تصبح مارشا قادرة على السفر، حتى نعود إلى بلادنا.

ابتعدت يده عن ذراعها. . وعرفت أن مزاجه قد تغير. . لم يعد هناك شيء من اللطف الذي عاملها به. .

سألها بحدة:

ـ هل هناك. . رجل ما. . تريدين العودة إليه مدموزيل؟

لديها رجلان تريد العودة إليهما، والدها الذي يمكن أن يرتدي جوربين مختلفين إذا لم تكن هناك لترتبهما له. . ومارك الذي يحتاجها لتشرف على أموره قبل أن يذهب إلى الجامعة.

ردت، وهي تعتقد أنه الرد الذي يحتاج إليه لتنهي الموضوع:

ـ أجَل.

عرفت أنها مخطئة مرة أخرى. . فعندما قطعا ممر الأقدام ووصلا إلى منطقة مليئة بالاشجار الباسقة وبالأعشاب، قال روجيه:

ـ لا يبدو أنه رجل. . هذا الإنكليزي. . فهو بالتأكيد لم يمسّك بعد.

ردت فوراً:

ـ بعض الرجال يحترمون الفتاة ولا يرغبون فيها فقط ليجعلوها تتخلى عن مبادئها وقيمها و. . وتستسلم لمجرد إرضاء نزوة رجل. . .

أمسك ذراعها مجدداً ليوقفها. . فرفعت نظرها إليه بغضب ورأت أنه لا يحمل أفكارها القديمة الطراز على محمل الجدّ.

ـ مون ديو! يا إلهي. . أي نوع من الرجال لديكم؟ أيُعتبر رجلاً من لا يستطيع تحريك الحب العميق الذي رأيته فيك، ومن لا يجعلك تنسين كل

شيء إلا وهب نفسك له؟

ـ أوه.. حباً بالله..! إنه ليس رجلاً يتسلل إلى فتاة ويعانقها وهي نائمة.. كما إنه لا يعانقها وهي نصف نائمة لا تعرف ما يفعل!

نظر إليها روجيه مطولاً، والشك في عينيه... ثم تغيرت ملامحه.. وأعجبت كولين بالابتسامة المرتسمة على وجهه، ولم تهتم للطريقة الناعمة التي سأل فيها:

ـ أيمكن أن تقولي.. إنك مستيقظة كلياً الآن؟

هزت رأسها.. لكن قلبها خفق بعنف، حين ارتدّ باتجاهها ووضع يده على ذراعها.. عندها أدركت كولين، ولو متأخرة، أنها كانت يجب أن تهز رأسها نفياً.

جعلت ذراعه الحديدية محاولتها التحرر منه عقيمة.. وخفق قلبها بتوتر مجدداً.. حاولت بقوة أن تدفعه عنها، لكن جهودها ذهبت سدى، فقد طوّقها بذراعه الأخرى ليؤمن التصاقها به.

تابعت كولين دفعه.. إنها لا تريد أن تشعر بالدفء المتصاعد منه.. إنها لا تريد أن تكون ذراعاه حولها.. إنها لا تريد عناقه رغم أنه عناق لطيف. إنها لا تريد...

أخذت أفكارها تتشوش.. كانت حركاته لطيفة.. بعثت الخفقات إلى قلبها.. بل جعلته يخفق بقوة وعنف.. وحدث لها شيء غريب.. لكنها لم تصرخ.. ومالت إليه، تحس فجأة بضعف ساقيها.. وحرّكت ذراعيها تتمسك به بقوة، وكأنها تخشى أن تقع.

بدأت شعلة من النار تسري في داخلها.. ثم وكأنها مصنوعة من زجاج هش، أحسته يحركها، يتحرك معها، ويأخذها معه إلى سجادة العشب.. فتحت عينيها ولكنها لم تع متى أغمضتهما.. فابتسم روجيه لها برقّة، وردت الابتسامة وغمرها بين ذراعيه.

فجأة لم تعد تريد أن يتركها.. فتعلقت به بيأس، وارتعش قلبها

بقوة... ما من رجل حرّك فيها هذا الإحساس.

همس لها بصوت أجش:

ـ استرخي حبيبتي...

أطلقت أنفاسها المكتومة.. واسترخت..

مرت الدقائق وهما متعانقان.. كانت كولين طوال الوقت تشعر برقته.. كان لطيفاً بحيث أنّها لم تخجل، بل استجابت بكل شغف... وفجأة توقف كل هذا.

أحست بالاضطراب.. وحاولت السيطرة على الأحاسيس التي تخالجها.. حاولت جاهدة أن تسترخي كما طلب إليها.. لكن عندما تحرّكت يده بطريقة أكثر جرأة، قالت بصوت مختنق: «لا.. لا أستطيع!».

قفزت مبتعدة عنه.. لم يكن لديها فكرة إذا ما كان غاضباً أم لا، لكنها لم تكن تتوقع أن يكون هادئاً جداً غير مضطرب.. ثم هز كتفيه:

ـ تكسب شيئاً.. وتخسر شيئاً آخر.. لكن ما من أحد طلب منك هذا.. شيري.

ـ أنت..

بدأت تجادل.. أنت فعلت! لكن لم يكن بإمكانها توجيه اللوم بأكمله إليه.. فصحيح أنه هو الذي بادر إلى عناقها، لكنها استجابت له، وهذا ما أزعجها كثيراً.

كانت غاضبة، ولكنها لم تكن تعرف إلى من يجب أن توجّه اللوم.. فجأة أحست باضطرابها يزداد، فسارعت ترتدّ على عقبيها وأطلقت ساقيها للريح.

ها هي مرّة أخرى تتصرّف بطريقة غير عقلانيّة. لكنها لم تهتم.. قبل مجيئها إلى فرنسا، كانت دائماً باردة، هادئة، تقيم لكل شيء حساباً.. أمّا الآن، فقد تغيّرت طباعها بشكل جذري، وكل هذا بسبب روجيه بوشين.

ورغم معرفتها أنه عابث، تركته يفعل بها ما يشاء!

رأت سيارته حيث تركاها، فأبطأت من عدوها.. ومرت من أمامها.. لم يكن لديها فكرة كم تبلغ المسافة التي تفصلها عن الشاتو.. لكن، وبما أن قدومهما بالسيارة لم يستغرق وقتاً طويلاً فلربما تستطيع العودة سيراً.

كانت قد أصبحت على مقربة من الطريق الداخلية للمزرعة حين توقفت سيارة قربها.. وعندما انفتحت نافذة السيارة، ورأت روجيه بوشين خلف المقود، عرفت أن الحظ لا يقف إلى جانبها هذا اليوم..

قال روجيه بلهجة آمرة:

ـ اصعدي كولين.

تجاهلته، وتابعت سيرها.. وتابع قيادة السيارة إلى جانبها.

ـ أعرف أنك مصدومة لأنك عرفت أنك منجذبة إلي.. أفهم سبب انزعاجك.. وأنا أيضاً منجذب إليك..

وحين وقفت كولين مسمرة مصدومة.. صمت وأوقف السيارة.. أغضبها كلامه عن الموضوع بهذه العلنية.. لكن، بما أنه فعل، قالت له بحدة:

ـ أنت تنجذب إلى أي شيء داخل تنورة!

سمعته يتمتم: «ليس كل شيء.. صغيرتي».

جعلت كلماته شفتيها تلتويان بانزعاج.. أدارت رأسها لترميه بنظرة متعالية.. إلا إنها لم تحقق بغيتها، فقد لاحظ روجيه أنها تحاول كبت ضحكتها. ورأت أنه يبتسم.

قال: «سمّني عابثاً فرنسياً.. سمّني ما شئت.. لكن مارشا تنتظر ألعابها».

أحست بالذنب لأنها نسيت أختها، ودخلت السيارة إلى جانبه وهي تحدجه بنظرة مترفّعة..

كانت مشغولة بأفكارها فلم تهتم بما كان يدور في رأسه خلال هذه الرحلة الصامتة إلى الشاتو... عندما أوقف السيارة، لم تنتظر ليفتح لها الباب، بل حملت مشترياتها بين ذراعيها وخرجت من السيارة كالبرق.. وكانت لا تزال مشوّشة حين دخلت إلى غرفة أختها.

استقبلتها أختها مؤنبة: «لقد تأخرت! هل عدت سيراً على الأقدام؟».

كان في كلامها رنة غيرة وهي تردف:

ـ ظننت أنني سمعت سيارة روجيه.

أظهرت أسئلة مارشا أنها تعتقد أن كولين ذهبت سيراً إلى القرية.. لكن كولين أحست بتعب كبير، ولا ترغب في أن تشرح لها شيئاً.. فهناك أشياء لن تستطيع شرحها حتى لنفسها.

ردت: «لقد أوصلني».

ووضعت مشترياتها على السرير.. وهي تشعر بحاجة إلى أن تكون هي في سريرها الآن.

لكن مارشا لم تتراجع:

ـ وهل عانقك مرة أخرى؟

نفد صبر كولين فجأة، وقالت بحدة:

ـ لا تكوني مزعجة مارشا!

واتجهت نحو الباب.

حين وصلت إلى غرفتها، كان عليها أن تعترف بأن في أعماقها إحساساً جديداً عليها.. لقد قلب روجيه بوشين شخصيتها رأساً على عقب.. وجعلها تخرج عن طورها أكثر من مرة، لكن كان عليها أن تعترف أيضاً أنها تستمتع كثيراً بصحبته..

***

٧ ـ مخطوفة!

نظرت مارشا باحتقار إلى لعبة الأحاجي، لكن بقية الأشياء أعجبتها.. تناولت كولين العشاء معها، ثم ذهبت لتنام دون أن ترى روجيه مرة أخرى تلك الليلة.

استيقظت باكراً في الصباح التالي، ووجدت أن مارشا التي غرقت في النوم، تتنفس بشكل طبيعي، وتبدو بصحة جيدة كما كانت دائماً.. لكن بداية اليوم لم تبشر بالخير، وسرعان ما تلاشى أمل كولين في أن تستعيد مارشا روحها المرحة..

قالت لها كولين بمرح:

ـ تبدين مشرقة جميلة.. عمّا قريب سنخرجك من السرير..

تمتمت مارشا: «لن أخرج إلى أي مكان.. حتى أناقش الأمر مع روجيه».

سألت كولين بعجب: «روجيه؟».

وعرفت إلى أي مدى هي مجنونة بحب الرجل.

ـ ألا تظنّين أن الدكتور غيوسي هو من يجب أن نسأله؟

صاحت مارشا:

ـ لا.. لا أظن.. على أي حال، ذلك الرجل التافه مسافر اليوم.. ولن يأتي لزيارتي.

منذ ذلك الوقت سارت الأمور من سيّء إلى أسوأ. مارشا تبحث عن أبسط الأعذار لتتذمر، وكولين التي تكاد تفقد صبرها، تحاول فعل

المستحيل لتخرج أختها من كآبتها.

في أحد الأيام، أحست كولين أن صبرها قد نفد. وخشية أن تقول شيئاً قاسياً وحاداً، تركت مارشا، وذهبت إلى غرفتها.. وهناك أمضت بضع دقائق ترتبها، ثم حين استعادت هدوءها وفتحت الباب لتعود، سمعت ضحكة مارشا من بابها المفتوح.

شعرت بالتوتر، ولم تعد إلى غرفتها إلاّ بعد أن سمعت روجيه يتكلّم بالفرنسية. ولأنها لا تستطيع أن تحتمل رؤيته.. لم ترجع إلى غرفة أختها إلاّ بعدما تأكدت من خروجه من تلك الغرفة.

لم يكن هناك أثر للضحك على وجه مارشا حين انضمت كولين إليها.. في الساعة الثانية عشرة والنصف، فكرت كولين بالعودة إلى غرفتها لتستعيد بعضاً من هدوئها.. وعجبت لأن مارشا بتملكها، كانت موافقة.. وقالت لها أختها الصغرى بشيء من الغضب:

ـ لا تسرعي في العودة لأجلي.

ـ لن أفعل.

وخرجت كولين قبل أن تتفوّه بكلمات قاسية.

بعد عشر دقائق من هذا، شعرت كولين برغبة ملحّة في العودة إلى بلادها.. هناك تستطيع أن تتعرّف إلى نفسها مجدداً. أما هنا، فقد اكتشفت في نفسها شخصية لا تعرفها.. وربما ينطبق الأمر عينه على مارشا.. فأختها الصغرى لم تكن يوماً، حتى في أيام المرض، بهذه الأخلاق السيئة.

بدأ الندم يتملّكها لأنها سمحت لأختها العنيدة بإفقادها صبرها، وأخذت تلوم نفسها.. وكانت تفكر كيف لها أن تنسى أن مارشا حاولت الانتحار، حين سمعت صوت سيارة تدخل الطريق الداخلية بعنف وتتوقف بحدة، مما شتّت أفكارها.

كانت متأكدة أن روجيه لا يقود هكذا، لذا أسرعت إلى النافذة.. ولم

يكن الواصل روجيه ولا كانت سيارته.

كانت السيارة من نوع رياضي.. راكبتها أنثى.. حين ترجلت امرأة شابة نحيلة أنيقة سوداء الشعر من السيارة ووقفت في الفناء، اطمأن بال كولين لعدم وجود شيء طارىء.. لكنها لم تبتعد عن النافذة.. فجأة، برز روجيه من المبنى، فرمت المرأة الأنيقة بنفسها إلى ذراعيه.. وتملّك كولين إحساس عنيف شلّ حركتها.

حين رأت روجيه يطوّق تلك المرأة بذراعيه، تهاوت إلى الخلف وفتشت عن مقعد تتمسك به.. أغمضت عينيها، لكن صورة روجيه مع المرأة الشابة لم تفارقها..

عندها عرفت كولين أنها تحب روجيه بوشين.. كما عرفت أن هذا الإحساس المؤلم الذي مزّقها لدى رؤية روجيه مع المرأة، ما هو إلاّ الغيرة المؤلمة.. ومع أن روجيه آخر شخص قد تختاره لتحبه، فلا يمكنها إنكار حقيقة مشاعرها.

بعد دقيقة، دخلت الخادمة اڤلين حاملة رسالة، ولكن كولين كادت لشدّة الصدمة، تنسى أن تشكرها.

قالت لها بهدوء: «ميرسي اڤلين».

لكنها لم تفكر في قراءة الرسالة إلا بعد خروجها.

حين قرأتها، وجدت أنها مذكرة قصيرة مكتوبة بوقار، وبلهجة آمرة. كانت من روجيه الذي يقول إن لديه ضيفاً، ويطلب منها أن تنضمّ إليهما للغداء لأن هذا ما تقتضيه الأصول..

كادت تقول: لا.. أبداً. فآخر ما تريده هو أن تراقبه وهو يغازل فتاة أحلامه.. وبدأت أفكارها تتشوّش.. لماذا بحق الله يريد روجيه أن تنضم إليه مع ضيفته للغداء، بينما قبل الآن، لم يكن يهتمّ بالسؤال أين تأكل وجباتها؟

لم يطل بها الوقت لتعرف الجواب.. كل هذا يتعلّق بالشرف

والأخلاق الحميدة.. الواضح أن ضيفته تعرف بوجود الفتاتين. ومارشا معذورة إن تغيبت أما كولين فما حجتها؟ وغيابها بلا ريب سيعتبر إهانة لروجيه.

لا شك أنه رأى بنفسه أن مارشا تبدو بصحة جيدة، لذا فلن يضيرها لو تناولت الغداء بمفردها.. ولا شك كذلك أن الشرف والأخلاق الحميدة يعنيان الكثير لروجيه بوشين.

بعد دقيقة، كانت قد شرعت في ارتداء ثيابها، وكانت تريد أن تكون أناقتها تعادل أناقة الضيفة الأخرى.

منذ نصف ساعة، كان يمكن أن تتجاهل قول أختها: «لا تسرعي في العودة» وأن تطلّ لتلقي نظرة عليها. لكن كان يجدر بها فعل هذا في وقت أبكر. اتجهت كولين مباشرة إلى السلم.. فإذا أرادت أن تكون في غرفة الطعام في تمام الواحدة، فليس لديها الوقت الكافي لمارشا.. أضف إلى ذلك، أنّ كولين تدرك أن أختها في مزاج سيء ولا ترغب إلاّ في المشاكسة.

حين دخلت غرفة الطعام وجدت روجيه واقفاً مع مخلوقة فاتنة، تصغرها ببضع سنوات.

ارتدّ إليها:

ـ آه.. كولين!

لم يكن على وجهه ما يدلّ على أنه يتذكر ما جرى بينهما.. كانت تحسّ أنها مريضة من فرط الغيرة، وعرفت أنها لن تتمكن من أكل شيء..

ثم فجأة، تشتت تفكيرها مرة أخرى حين قال روجيه:

ـ اسمحي لي أن أقدم لك ابنة أختي.. ڤيڤيان..

أشعرتها الصدمة والراحة العاطفية أنها صماء.. غير أنها استطاعت أن تستجمع أفكارها وسمعته يقول لضيفته إن ضيفته الإنكليزية لا تعرف لغتهم.

كانت ابتسامتها مشرقة كشمس النهار وهي تصافح ڤيڤيان. ولم تستطع أن تنكر الدفء الذي غمرها، لأن روجيه قادها إلى الطاولة وكأنها ضيفة مميزة جداً.

لكن يجب ألاّ تتمادى في أفكارها! وعرفت أن عليها أن تكبح عواطفها.. فالكياسة طبيعة ثانية بالنسبة له.. وستكون غبية إذا تصورت أنها مميزة عنده.

ورغم أنها أقنعت نفسها بذلك، فإن البهجة سرعان ما عادت إليها خلال الوجبة إذ راح الحديث يدور بالإنكليزية فقط. ولم يحاول روجيه قط إبعادها عن الحديث.. وكانت كولين السباقة لذكر العائلة حين سألت عن صحة أبيها.

أجابت ڤيڤيان مبتسمة:

ـ لقد تحسن كثيراً.. أُجري له اختبار آخر، لكن.. التشخيص.. أليست الكلمة صحيحة؟ يبدو جيداً.. بعد انتهاء الاختبار الأخير، سيعود والداي إلى هنا للراحة، وكما يقول خالي: لأتمكّن أنا من البقاء هنا..

وضحكت لروجيه.

لاحظت كولين أن ڤيڤيان، رغم أناقتها، أكثر طيشاً من مارشا.. وكانت وجبة الطعام في نهايتها حين وضعت ڤيڤيان أدوات الطعام من يدها، واستأذنت.. وبدا واضحاً من تعابير وجهها وقيادتها المجنونة لسيارتها، أنها لا تستقر أبداً لفترة طويلة.

ـ يجب أن أذهب لأقول «بونجور» للمسكينة مارشا.. لو جلست معها لبعض الوقت، قد تتمكّنين من تنشق هواء نقي.

ولأن روجيه كان قد سألها بالأمس عما إذا خرجت من المنزل، اتجهت عيناها إليه، فرأت أنه بدأ يبتسم، فأشاحت بوجهها عنه. وما إن تذكرت كيف أن ذلك «الهواء النقي» قد أثر فيها بالأمس حتى شعرت بالتشوّش والارتباك.

نظرت إلى ڤيڤيان، فوجدتها تتأملهما بفضول وكأنّها تشك بوجود ما يشبه العلاقة بينهما. وبسبب ارتباكها، خشيت أن يكون أي شيء تقوله خاطئاً.

قال روجيه:

ـ يجب أن أذهب الآن صغيرتي.. لا بدّ أن مارشا قد سمعت بوصولك، وتريد رؤيتك.

خفّ فضول ڤيڤيان فابتسمت وقالت:

ـ أراك فيما بعد كولين.

وتركتهما.

تغلبت كولين على ارتباكها.. لكنها غضبت حين تذكرت أنها إنما دعيت من باب حسن الأخلاق. وعرفت أن عدم ذكر الأشخاص الذين تعرفهم ڤيڤيان ويعرفهم روجيه كان مراعاة لها. فلا شك أنّهما ينظران إليها كغريبة تحتاج للخروج من غرفتها بسرعة، وإلاّ انفجرت بالبكاء.. وتمكنت من أن تتمتم: «أرجو عذرك».

وتركت مقعدها.

ما كادت تصل إلى باب غرفتها حتى ناداها روجيه.. حثتها غرائزها على أن تتابع طريقها.. لكن كرامتها أبت عليها أن يعرف روجيه أنها منزعجة بسببه. ابتلعت ريقها بصعوبة، ثم ارتدت. كان هو كذلك قد غادر الطاولة، وتقدم ليقف على بُعد يارد منها. ونظرت إليه متسائلة.. فقال بلهجة عادية:

ـ هل لي أن آخذك بنزهة في السيارة؟

طغى غضبها على رغبتها بالبكاء.

قالت ببرود:

ـ لا مسيو.. لا يمكنك أخذي.

عادت إليه عجرفته، وسألها ببرود:

ـ وهل لي، مدموزيل، أن استنتج من هذا أنك لا تستخدمين اسمي الأول إلا في.. اللحظات.. الحميمة؟

ابتعدت كالعاصفة تفكر: كم أكرهك! لكن قلبها كان يقول العكس.. ووصلت أعلى السلم لتستقبلها عاصفة ضحك من غرفة مارشا. فذهبت إلى غرفتها وهي تفكر أن الجميع ما عداها يجعل مارشا تضحك.

اقتربت من النافذة علّ المناظر الجميلة تبهجها، لكنها لم ترَ شيئاً من المناظر.. بل إنّ كل ما رأته، كان مؤخرة سيارة روجيه وهي تبتعد.

ولأن الجميع يظن أنها بحاجة إلى «هواء نقي»، قررت أن تخرج لتتمشى.

رغماً عنها، كان روجيه يحتلّ أفكارها.. نزلت السلم، وخرجت من الباب الجانبي.. وهي ما تزال تشعر بالضياع لأنها اكتشفت أنها تحبه.

سارت كولين إلى أن وصلت إلى جذع شجرة مكسور، فجلست تفكر كيف أن الحب يجرّد العقل من المنطق.. في هذه البقعة، وتحت ظل أشجار طويلة مهيبة، عرفت أن المنطق يملي عليها أن تعود إلى بلادها، إلا أنها لا تريد العودة.

سيطر عليها الحزن، وفكّرت بضرورة مغادرة هذا المكان الجميل.. مر الوقت وهي تفكّر في ما مرّ بها خلال إقامتها في النورماندي.. ولم يكن لديها فكرة كم بقيت بعيدة عن الشاتو.. كل ما كانت تعرفه هو أن قلبها سيتحطم إن غادرت منزل روجيه.

كانت تتأمّل المناظر فلاحظت الطريقة التي تتم فيها صيانة الأراضي.. ظنّت أنّها كانت مشوّشة جداً حين سارت فوق هذا الطريق في وقت سابق، لأنها الآن فقط لاحظت الحصى المفروش على ممر النهر.

عادت إلى الشاتو ودخلت من الباب ذاته الذي خرجت منه.. فكرت في زيارة أختها، وخرجت ڤيڤيان من الصالون.

صاحت والابتسامة على وجهها:

ـ ها أنت! لقد وصلت في الوقت المحدد للشاي!

ردت كولين الابتسام:

ـ كنت في طريقي لأرى مارشا.

قالت ڤيڤيان برقة:

ـ آه! لكنني طلبت الشاي والكايك الإنكليزي خصيصاً لك.. وكل شيء جاهز في الصالون.

لم تستطع كولين رفض دعوة مشابهة:

ـ شكراً مدموزيل.

وتقدمت نحوها... مارشا لن تمانع إن لم ترها لعشر دقائق أخرى.

قالت:

ـ كنت أتمشى قرب...

عندما رأت روجيه جالساً توقّفت عن الكلام.

فسألها برقة، وقد وقف احتراماً:

ـ وهل استمتعت بالسير، كولين؟

وانتظر حتى جلست، ثم عاد ليجلس.

ردت متمتمة: «.. كثيراً.. روجيه».

لم ترَ ردة فعله، لكنّها عرفت أنها أوقفته عند حده، بعد أن انتزعت اسمه من فمها انتزاعاً.. قدّمت إليها ڤيڤيان فنجان شاي وعرضت عليها الكايك، مما أعطى كولين شيئاً آخر تركز عليه.

لاحظت كولين الروابط الأسرية المتينة التي تجمع بين مضيفها وابنة أخته، ففهمت سبب إصرار روجيه على الانضمام إليهما لشرب الشاي.

رفضت كولين تناول فنجان شاي آخر، وكانت تهمّ بترك الصالون حين تكلمت ڤيڤيان فجأة بالفرنسية فذكرها روجيه بأن تتكلم الإنكليزية.

قالت معتذرة:

ـ أسفة.. لقد اعتدت على مهارة مارشا بالفرنسية، ونسيت للحظات

أنك لست مثلها.. بمناسبة الكلام عن مارشا، لا يبدو لي أنها تعاني شيئاً.

مع أنّ روجيه نهر ڤيڤيان لأنها لم تتكلم الإنكليزية، راح يتكلم الفرنسية بحدة. وحين نظر إليها ورأى الدهشة على وجهها، ابتسم:

ـ يبدو أن هذا نوع من العدوى.. كنت أقول لهذه السيدة الشابة إن تعليقها فظ تماماً لأنها لم تكن هنا ساعة مرضها لتعرف كم كانت حالتها خطرة.

تمتمت كولين: «أبداً..».

ارتد نظرها إلى ڤيڤيان التي كانت ترقبهما بفضول، لكن فضولها زال وهي تسأل:

ـ وهل سامحتني لفظاظتي.. كولين؟

قالت كولين: «ليس هناك ما أسامحك عليه..».

وشكرتها على الشاي، ثم تركت كرسيها، وهمّت بترك الغرفة. لم يخطر ببالها أن يتقدم روجيه ليفتح لها الباب.. فنظرت إليه وتمتمت بأدب:

ـ شكراً لك.

ـ سوف تعديني بالانضمام إلينا على العشاء هذا المساء.. كولين.

فتحت فمها لترفض.. لكنها لم تستطع.. حتى مع وجود ڤيڤيان، لا تريد أن تكون معه على مائدة العشاء.. فسرعان ما تعود إلى بلادها ولن تراه مرة أخرى.

قالت: «طبعاً».

كان قلبها يخفق بشدة لمجرد وقوفها إلى جانبه.. وهذه المرة، لم تستطع أن تنطق اسمه الأول ساخرة. وارتدت بسرعة تبتعد.

كانت قد هدأت قليلاً حين وصلت إلى غرفة أختها التي بادرتها بالسؤال:

ـ أين كنت؟

ـ خرجت لأتمشى.

ـ وهل رأيت ڤيڤيان؟

ـ التقيت بها على مائدة الغداء، وتناولنا للتو فنجان شاي معاً.

قالت مارشا بحماس:

ـ إنها رائعة.. أليس كذلك؟ هل رأيت البذلة التي ترتديها؟ سوف أحصل على مثلها.

بعد ذلك دار الحديث بينهما عن الثياب وعما ينقص مارشا منها.. ثم قالت كولين بحذر:

ـ أعتقد أن من الأفضل أن أذهب لأبحث عما ارتديه... فمن المتوقع أن أتناول العشاء في الأسفل هذه الليلة.. ولا أريد أن تعتقد ڤيڤيان أنني.. وحسب تعبيرك من «هيكسفيل».

وقفت مارشا ويا للدهشة إلى جانبها بدلاً من أن تغضب. وقالت:

ـ أراهن أن ڤيڤيان سترتدي شيئاً مذهلاً.. لا أعتقد أنك فكرت أن تحضري معك فستانك المخملي الأسود؟

ـ في الواقع.. إنه معي.

ـ عظيم.. يوجد في ذلك الدرج وشاح حريري وردي. لو وضعته بأناقة فوق عنقك، لبدوت رائعة.

أخذت كولين الوشاح معها إلى غرفتها.. وهناك غسلت شعرها الأشقر، وجففته قبل حلول موعد العشاء.. لم يسبق لها أن ارتدت ثوباً ليراها أي رجل جميلةً، أما الآن فأرادت أن تبدو بأفضل حال.

في الثامنة إلا ربعاً، تفحصت صورتها في المرآة.. بدا المخمل الأسود وكأنه يضفي شيئاً مميزاً على بشرتها الشقراء.. ووضعت الوشاح حول عنقها.

خرجت لترى أختها. لكن مارشا غيّرت رأيها بشأن الوشاح:

ـ لا يبدو الوشاح عليك مناسباً الآن.. اخلعيه ودعيني أرى.. هه..

هكذا أفضل كما أعتقد. مع أنك لن تتغلبي على ڤيڤيان، لكن هذا يكفي. هل أحضرت لآلىء أمي معك؟

ـ لا.. في الواقع.. لم أفعل.. هل أنت سعيدة بعودة ڤيڤيان، مارشا؟

هزت مارشا رأسها إيجاباً:

ـ إنها تنتقي ثيابها حسب آخر صيحات الموضة، كما أنّ رفقتها رائعة في غياب روجيه.

ـ وهل يغيب كثيراً؟

قالت مارشا بجد:

ـ لقد سبق أن أخبرتك أن لديه عملاً يديره. في الواقع.. كنت أتوقع أن يسافر هذا الأسبوع.. أعرف أن لديه اجتماعاً هاماً في باريس يوم الجمعة.

ابتسمت ابتسامة ماكرة، وتنهدت بطريقة درامية، ثم أضافت:

ـ لكن مرضي دون شك جعله يلغي الموعد.

ـ لا شك في هذا.. أراك فيما بعد.

أخذ قلبها يخفق بسرعة، وتمسكت بدرابزين السلم جيداً قبل أن تنزل.. وحين وصلت إلى أسفل السلم وجدت روجيه يحدّق إليها. وما لبث أن تقدّم منها وأمسك بذراعها متمتماً:

ـ أنت جميلة جداً.. جداً.. كولين.

شعرت بموجة من الارتباك تجتاحها، ولم تدرِ بما تجيب..

تركته يقودها إلى الباب الخارجي. ولم تقل شيئاً مع أنها رأت أن الباب الخارجي طريقة غريبة للوصول إلى غرفة الطعام...

قادها روجيه إلى سيارته، وأجلسها فيها. لكنها أدركت أنهما لو كانا سيتعشيان في الشاتو، فلن يحتاجا إلى سيارة، فسألت متلعثمة:

ـ ماذا.. أين..؟

لكن السيارة انطلقت قبل أن تتمالك نفسها وتسأل بحزم:

ـ إلى أين تأخذني؟

ـ لنتعشى.

ـ لنتـ.. لنتعشى! لكن.. لكن..

ـ أنت بحاجة إلى أمسية تجدين فيها الراحة صغيرتي.. أنت..

حاولت الجدال: «لا.. لست بحاجة».

ـ بل.. أنت بحاجة.. لقد طلبت منك العشاء معي.. ألا تذكرين هذا؟

ارتبكت فهي لا تذكر سوى أنه قال لها أن تتعشى معه.. لكنها ظنت أن ڤيڤـ..

ـ أين ڤيڤيان؟

رد بصوت هادىء:

ـ لم أطلب منها الانضمام إلينا.

صدمت ولكنها عرفت أن روجيه قد قام بهذه الحيلة لكي يتناولا العشاء على انفراد.. وفيما كانت السيارة تسرع بالمسير.. شعرت كولين بأنها كالمخطوفة تماماً!

***

٨ ـ الحب والكرامة

أرادت كولين أن تحتجّ، لكنها عرفت أنها ستضيع وقتها سدى لو طلبت إليه أن يعيدها.

كانت لا تزال تحت أثر الصدمة، حين أوقف السيارة أمام «شاتو» آخر.

لقد لزمت الصمت طوال الطريق، ولاحظت أن هذا المبنى لم يكن منزلاً خاصاً مثل الشاتو الذي يملكه روجيه، بل تحول إلى فندق.

لسع الهواء البارد في الخارج خديها حين استدار روجيه ليفتح لها الباب.. ورغم فضولها لرؤية الفندق من الداخل، كانت مصمّمة على عدم الاستسلام لتسلط روجيه لها، لذا لم تتحرك لتخرج.

سألها بصوت مغوٍ ملؤه بالسحر:

ـ هل أنت غاضبة مني إلى درجة أن تديري ظهرك إلى الوجبة اللذيذة التي تنتظرك؟

تمتمت ساخطة:

ـ ما كان يجب أن تفعل هذا.

سأل بلهجة دافئة:

ـ لكن لماذا؟ أنت معتادة على صنع الأشياء للآخرين.. ألا يمكن أن تشرّفيني وتسمحي لي بالاعتناء بك قليلاً؟

أخذ عنادها بسبب سحره يتلاشى ـ لقد اعترف بأن العناية بها تشرّفه، وهذا ما هدّأ خوفها.. وعلى أي حال إنه مجرد عشاء.. لن يستغرق وقتاً

طويلاً.. ثم أولم ترغب في قضاء بعض الوقت معه؟

سألت مترددة:

ـ وهل.. هل ستكون مارشا بخير؟

ابتسم، ووضع يداً على ذراعها وسأل:

ـ أيمكن أن أتركها دون رفيق؟ قريبتانا متفقتان معاً.. أليس كذلك؟

ودون أن تعي، وجدت كولين نفسها وقد أصبحت خارج السيارة..

اكتشفت أنهما أتيا بناءً على موعد مسبق... رأت أن روجيه يعرف جيداً تلك المرأة الأنيقة الكفؤة التي تدير المؤسسة، والتي جاءت لتصافحهما.

وجدت كولين أن ابتسامتها الضائعة قد عادت طبيعية.. مع أن السيدة لم تكن تتحدث الإنكليزية إلا أن ترحيبها بكولين كان حاراً مثل ترحيبها بروجيه.. قادتهما إلى غرفة ملحقة بقاعة الطعام حيث أخذ روجيه كولين إلى طاولة حولها أريكة بمقعدين.. تكلم مع السيدة التي ذهبت بسرعة.. ثم جلس إلى جانب كولين..

شعرت بأنها بحاجة إلى قول أي شيء:

ـ الـ.. فندق هذا.. كان «شاتو» يوماً.. أليس كذلك؟

هز روجيه رأسه موافقاً:

ـ لسوء الحظ.. أن صيانة الأملاك القديمة تستلزم نفقات كثيرة.. حين بدأت صاحبة هذا القصر تعاني من مأزق مالي، لم يعد أمامها سوى حلين: إمّا أن تبيع وهذا ما لا تحتمله، وإما أن تجد طريقة تحافظ فيها على الشاتو.

جاء رئيس السقاة بشيء من المقبلات، بناء على طلب روجيه، وأعطى كل واحد منهما لائحة طعام.

وضعت كأس الماء على طاولة صغيرة أمامها، وفتحت لائحة الطعام الجلدية الغلاف. وسُرعان ما ضاعت فاللائحة كلها مكتوبة بالفرنسية.

رأى روجيه حيرتها، فاقترب منها ليترجم لها.. وعرفت أن عليها أن تسيطر على نفسها، فقربه منها يصيبها بالدوار.

ـ آه! ليس هناك أسعار على لائحة الطعام التي معي، لكن الأسعار موجودة على لائحتك.

جعلها تشعر بالراحة وهو يرد:

ـ هكذا يجب أن تكون.

ـ هل.. الأسعار.. مخيفة هنا؟

تسربت الابتسامة الدافئة في عينيه إلى داخلها وقلبت كيانها..

ـ ليست مخيفة.. ولكن، ولكي يطمأن بالك أخبرك أنّي أعيش في بحبوحة مادية فأعمالي تدرّ عليّ ما يكفي لكي أدعو سيدة إنكليزية فاتنة إلى العشاء، دون أي إزعاج مادّي.

أشعرتها ثقته بنفسه بالدفء، وغرقت في سحره.. لكنها كبحت رغبتها في معرفة كل شيء عن عمله، وعن والده ووالدته.. ركّزت اهتمامها على لائحة الطعام فأي سؤال تطرحه عن حياته سيفضح مدى اهتمامها به.. وهذا ما لا تستطيع تحمله.. يجب أن تمر هذه الليلة دون أن يعرف شيئاً من مشاعرها نحوه.

حاولت كولين مجدداً أن تسيطر على نفسها حين قادها الساقي بعد وقت قصير إلى غرفة طعام فخمة وضخمة، فيها أكبر مدفأة حطب رأتها. بعدما جلست قبالته، نظرت حولها، ورأت أن الطاولة التي يجلسان عليها، كانت في مكان حميم خفي في الزاوية.

بذلت جهدها لتكون رفيقة مسلية وهادئة. لكنها سرعان ما اكتشفت أن مجرّد جلوسه قبالتها يثير أعصابها.

حين وصل أول الأطباق، ظنت أنها ستكون للحظات بمعزل عن سحره.. إنه رفيق عشاء مثير للاهتمام.. وقد تسلت أكثر من مرة بسماع تعليقاته المرحة.. وكما عرفت من عينيه أنه بدوره يتسلى بردها.. لكن

مع وصول الطبق الثاني، ثم الثالث، أدركت كولين أن كل المحاولات التي قامت بها لمقاومة سحره قد انهارت.

وفيما كانت تقطع قطعة جبن اكتشفت فجأة أن لا ضير من الاستسلام لبهجة هذا المساء.. لقد تحدثا في كل المواضيع، إلا عن حياتهما الشخصية. لكنها وجدت أنها لا تستطيع إخفاء شيء حين سألها روجيه:

ـ إذن حصل والدك على الترقية.. وخطا الخطوة الأولى نحو الحياة خارج المنزل.. وأما التوأم، فسرعان ما يستقران في الجامعة.. فماذا عنك كولين؟

ـ أنا.. لقد فكرت بنفسي.. وسوف أبدأ دروس السكرتاريا في الشهر القادم.

حاولت التجاوب مع ابتسامته، لكنها لم تستطع.

ـ تتوقين إلى العمل؟

ـ لا أعتقد أنه توق بقدر ما هو إحساس داخلي يدفعني لاستخدام عقلي لما هو أكثر من تدبير المنزل.. إنما لا تسيء فهمي فلدي منزلي الذي أحب العمل فيه.. كما أنني أشعر بالرضى حين يسير كل شيء على ما يرام.. لكنني.. فقط.. أشعر أن عليّ القيام بما هو أكثر فائدة.

قاطعها بلطف: «مون ديو! يا إلهي.. وهل هناك ما هو أكثر فائدة من العمل المنزلي، لأجل العائلة؟ إذن خطتك للمستقبل أن تصبحي سكرتيرة.. أوليس هناك مكان للزواج في خططك المستقبلية؟».

غضت طرفها إلى طبقها.. إنها لم تفكر في الزواج.. لكنها عرفت أن الرجل الوحيد الذي قد ترغب في الزواج منه هو هذا الرجل الجالس قبالتها، والذي ينتظر ردها بهدوء..

لم تعط نفسها فرصة للتفكير، بل قالت له مبتسمة: «ليس في أفقي أحد في هذه اللحظات».

ابتسم روجيه بهدوء، ولم يقولا أي شيء إذ كان الساقي يغير أطباق

الجبن بأطباق الحلوى.. وعندما تلاشى ذعر كولين، بدأت تتساءل عن سبب ابتسامته الهادئة.. فجأة تذكرت أنها قالت له إن هناك رجلاً تريد العودة إليه في انكلترا.. فالآن عرف أنها كذبت عليه.

غمست ملعقتها في الحلوى بكل ما استطاعت التظاهر به من لا مبالاة، وقالت:

ـ إذن.. أنا كاذبة، كنت أفكر في والدي وأخي.. حين قلت.. تعرف ماذا.

ـ نعم أعرف.. أشعر أنك قد تكونين مصدر عذاب لرجل.

تصنعت الدهشة، وصاحت ساخرة: «أنا!».

وضحكت.. ربما هذا بسبب تأثير روجيه فيها. وقالت بمرح:

ـ أنت تقول ألطف الأشياء.. مسيو.

أسعدتها ضحكته، كما أسعدتها طريقة انتقاله من الحديث عنها وعن عائلتها، إلى مواضيع أخرى.

كانا يتناولان القهوة حين أدركت أن أكثر الأمسيات رومانسية في حياتها تكاد تنتهي.. لقد تحدّثا كثيراً، وعرف روجيه القليل عنها، لكنها لم تعرف شيئاً عنه.. وأخذت تبحث عن طريقة تجعله فيها يتكلم عن نفسه، وظنت أنها وجدتها حين قالت له صادقة:

ـ مع أن هذا الشاتو رائع.. إلا أنني أفضل قصرك.

ـ يسرني هذا كولين.

ـ وهو في حالة ممتازة كذلك.

ـ من المهم جداً بالنسبة لي أن يكون هكذا.. كان شاتو بوشين ملكاً للعائلة منذ أجيال.. ويجب أن يبقى في حالٍ جيدة لأولادي.

ـ وهل.. لديك.. أولاد؟

ابتسم لمّا رآها مذهولة:

ـ ليس بعد.. أولاً.. يجب أن أجدَ زوجة.

ـ وهل.. تريد أن.. تتزوج؟

خالجه نوع من التوتر وهو يرد:

ـ لا طريقة أخرى أمامي.. أريد أولاداً يحملون اسمي.

حاولت كولين السيطرة على غيرتها قدر المستطاع، وتمنت لو أنهما لم يتطرّقا إلى هذا الموضوع.. لكنه كان قد انتهى من هذا على ما يبدو، لأنه انتقل إلى الحديث عن أمور أخرى، فنسيت غيرتها.

رغبت أن تستمر تلك الأمسية إلى الأبد.. لكنها عرفت أنها انتهت، فقد دفع روجيه الفاتورة وسأل بصوت منخفض:

ـ هل استمتعت بالأمسية كولين؟

وكيف تنكر هذا؟

ـ أجل.

لم يتحدّثا كثيراً في طريق العودة، لكن حين لاحظت كولين الساعة على لوحة العدادات أمامه، كسرت الصمت الودي بينهما:

ـ لقد تجاوز الوقت منتصف الليل!

ـ مر الوقت كالبرق.

رافقها روجيه إلى داخل الشاتو.. وسحر الأمسية يلفها.. توقعت أن يصعدا السلم معاً، ليفترقا عند بابها.. لكنه توقف في أسفل السلم، وعرفت أن عليها أن تشكره على أروع أمسية في حياتها.

رغبت في إعطائه صورة لطيفة عن مشاعرها.. لكن قلبها أخذ يقصف كالرعد حين طالعتها النظرة الحنونة في عينيه الرماديتين الدافئتين.. وعلقت الكلمات في حنجرتها.. وأحست بقبضته الدافئة تمسك بيدها، وعجزت عن قول أي شيء لأنه قال هامساً بصدق ووقار:

ـ أرغب كثيراً في معانقتك عزيزتي.. لكنني أخشى أن تسيئي فهمي.

رفع يدها إلى فمه، وطبع قبلة لطيفة على كفها.. وأردف:

ـ بون نوي.. صغيرتي.

أطبقت يدها على قبلته بشدة:

- بون نوي.. روجيه.

وصعدت الدرج مسرعة.

استيقظت في الصباح التالي، ولكنها لم تغادر السرير فوراً.. فلم يلهها طلوع ضوء النهار عن التمتع بفرحة الأمسية السابقة.

مرة أخرى فكرت كيف مر الوقت بسرعة البرق. هل أمضيا فعلاً تلك الساعات ليتناولا وجبة طعام؟ لقد وافق روجيه معها أن الوقت «مرّ كالبرق».. لكن هل أحس بالإثارة مثلها؟

تذكرت أنه لم يعانقها خشية أن تسيء فهمه. وفجأة بدأ المنطق يستولي عليها وينتشلها من مزاجها الحالم. فعلى حين غرّة، صدمتها فكرة رهيبة.

لقد قال روجيه إنّ عليه أن يتزوج.. لكن هل كان يعني أن أي عناق قد يتبادلانه، لن يقود إلى أي مكان؟ هل لاحظ كم تهتم به؟ وبدأت تذعر.. هل قوله «أخشى أن تسيئي فهمي» هي طريقته للقول إنه، وفي ظروف أخرى، كان يمكن أن ينهي مثل هذه الأمسية الرائعة.. بعناق؟ ولأنه رأى الحب الذي تكنه له، ولأن لا خبرة لها في فن الحب، خشي أن تسيء الفهم وأن تظن أن أي شيء يحدث هو إعلان للحب؟

بدأت راحتاها تعرقان، واعترفت لنفسها أنها كانت مستعدّة للوقوع في شرك إغوائه.. كانت مفتونة به.. وهذا المساء، عرفت أنه لو عانقها، لتجاوبت معه.

وعت تماماً أنها ليست مستعدة لرؤية أي شخص كان، وفي الوقت عينه، وجدت أنها لن تستطيع البقاء في غرفتها تجترّ أفكارها الهدّامة، لذا كان خيارها الأوحد هو غرفة مارشا.

حثّت الخطى ساخطة وكانت تفكر في طريقة ما لتجعل روجيه يفهم أنه على خطأ إن كان يظنها متيّمة.. فتحت باب غرفة مارشا مذعورة..

لكن ذعرها ما لبث أن تفاقم حين رأت مارشا وقد نهضت من السرير وارتدت ثيابها. وكانت خزانة ملابسها مفتوحة هي ترمي محتوياتها في حقيبتين مفتوحتين على السرير.

سألت كولين بلهفة:

- ماذا تفعلين؟

ردت مارشا غاضبة:

- وماذا يبدو لك أنني أفعل؟ أنا عائدة إلى المنزل.

- لكن.. لكن..

قاطعتها بحدة:

- لكن لا شيء.. إذا كنت تظنّين أنني سأبقى هنا بعد أن دُفعت للشعور أنني غبية، فأنت على خطأ!

قالت كولين ببطء:

- أنت تشيرين إلى.. أن روجيه دعاني للعشاء.. دون ڤيڤيان.

عرفت كولين عندها أن لا تعقّل في الحب. فمع أن كل ما كانت تريده هو إبعاد مارشا عن الشاتو، ومع أنها تظن أنها لا تريد رؤية روجيه مجدداً، فهي تتوق بيأس للبقاء.

لكنها مضطرة لإدارة ظهرها لما تريده في سبيل مارشا.. فقد جعلتها سنوات من الاهتمام والعناية بأختها تقوم بالمستحيل لكي تجنّبها الأزمات..

سألت: «ألا تظنّين أن من الأفضل أن نكلم الدكتور غيوسي لنرى إذا كنت تستطيعين السفر؟».

ردت مارشا بفظاظة:

- دعك من الدكتور.. فأنا مسافرة.

لم تر كولين أثراً للمرض على أختها، وأملت ألا يتسبب لها هذا الجيشان العاطفي بنوبة ربو أخرى.

قالت بهدوء:

ـ سأذهب لأوضب ثيابي.. على واحدة منا إخبار روجيه أننا مغادرتان.. فهل يمكن لك..

قاطعتها مارشا بحدة:

ـ لا داعي لإخباره شيئاً.. إنه ليس هنا.

تراجعت كولين بضع خطوات في الغرفة، مصدومة:

ـ ليس هنا؟.. ماذا تعنين.. ليس هنا؟

ـ ألم يقل لك وأنت تتعشين معه ليلة أمس عن موعده المبكر في باريس اليوم؟

هزت كولين رأسها بغباء.. وسمعت أختها تقول إن ڤيڤيان هي التي حملت الخبر إليها..

أكملت مارشا:

ـ تقول ڤيڤيان إنه كان مضطراً إلى الرحيل مع أول بزوغ الفجر ليصل في الوقت المحدد.

كان المنطق يملي عليها أن تشعر بالسعادة لأنها لن تراه مرة أخرى. لكن قلبها كان مثقلاً بالأسى حين تركت الشاتو بعد وقت قصير، ومارشا في المقعد الآخر من سيارتها.

فكرت أن اللياقة تقتضي منها ألاّ تترك القصر دون إظهار شيء من الامتنان. وفكرت أن الرسالة المختصرة التي تركتها والتي تشكر فيها روجيه على حسن ضيافته كانت مقتضبة جداً.

حين أعطتها كولين المذكرة، عرفت ڤيڤيان أنهما مغادرتان، فشعرت بالحيرة والارتباك.. لقد افترضت أن السبب هو مرض مارشا.. ومع أن كولين استلطفت الفرنسية الشابة، إلاّ أنها تركتها تمضي في هذا الافتراض.

توقّعت كولين أن تبقى مارشا على مزاجها العكر... لكن لم يمر

سوى ساعة على مغادرة القصر، حتى بدأت مارشا تبتسم قليلاً وما إن أصبحتا فوق السفينة العبّارة، حتى عادت إلى طبيعتها المرحة...

لم ترغب كولين في التفكير بروجيه، أو حبها له، بل ركزت اهتمامها على مارشا... يبدو أنها عادت إلى مرحها لأنها حين ابتعدت عن الشاتو، باتت ترى الأمور بمنظار أكثر وضوحاً.

فجأة، عادت مارشا لتجلس قبالة أختها:

ـ احزري ماذا؟

لاحظت كولين نوعاً من الإثارة في عيني أختها لا علاقة له بالمرض.. فأجابت:

ـ أخبريني ماذا!

ـ لقد قابلت للتو شاباً رائعاً... إنه في السنة الأخيرة في جامعة يورك! هذا كل شيء.

حاولت كولين أن تبقى هادئة وهي تسأل:

ـ هل أفهم من هذا أنك قررت الذهاب إلى الجامعة؟

ـ إذا قررت دعوتي بالطائشة اللعينة، فسأسمح لك. لكن لا ضير من الالتحاق بالجامعة إذا كان هذا الشاب هو المثال لما يوجد هناك!

هجر الهدوء كولين فجأة وأصبح صوتها لاذعاً وهي تعلق:

ـ لم يلزمك وقت طويل لنسيان روجيه بوشين، أليس كذلك؟

ـ كانت عطلة رائعة، أليس كذلك؟

صاحت كولين:

ـ عطلة رائعة! ظننتك واقعة في حبه رأساً على عقب!

ـ كنت مفتونة به، لكنه عاملني كطفلة طوال الوقت، لذا فهمت أخيراً أنني لن أصل إلى أي نتيجة معه.

ـ وإلى أين كنت تأملين «الوصول معه»؟

ـ المسألة «نظرية»... فقد رفض أن يلعب اللعبة.

فجأة تذكرت كولين المصاعب الجمّة التي واجهتها أختها بسبب حبها لهذا الرجل.. فقالت بلطف محاولة أن تساعدها:

ـ هذا أمر لا يصدق حبيبتي.. ما من فتاة تحاول الانتحار..

ـ الانتحار؟ عمّ تتحدثين بحق الله؟

حاولت كولين أن تهدئها:

ـ لا تحاولي الإنكار حبي.. كنت هناك.. أنسيت أنني قفزت وراءك في النهر لإنقاذك، لقد حاولت..

شهقت مارشا:

ـ يا إلهي! خلتك وقعت بالنهر بالطريقة التي وقعت أنا فيها! ألا تذكرين؟ لقد أمطرت السماء دون توقف لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة.. حين ركضت على ضفة النهر، كان الممر منزلقاً. سمعت صوتاً ورائي وفكرت أنه روجيه، فأسرعت في الركض.. لكن المشكلة كانت أنني اخترت منطقة موحلة منزلقة لأقف فيها.. ولا بد أنك سمعت عويلي رعباً حين فقدت توازني وعرفت أنني لن أستطيع تجنب الوقوع في النهر!

حدقت كولين إلى أختها بعدم تصديق.. أجل.. لقد سمعت أختها تصيح، لكنها ظنت أنها صيحة عذاب.. ولقد كانت كذلك، لكن ليس للأسباب التي ظنتها.

بدأت كولين تثوب إلى رشدها.

ـ أنت.. وقعت.. في النهر.. صدفة؟

ـ طبعاً.. وظننت أنك انزلقت في البقعة الموحلة ذاتها.. يا إلهي كولين! أعرف أنني كنت غاضبة! لكنك يجب أن تعذريني.. فقد رأيتك تتعلقين بالرجل الذي لم أستطع معه أنا التوصّل إلى شيء.. لكن.. يا الله..! حبّي للحياة يمنعني من التفكير في شيء رهيب كهذا!!

أحست كولين براحة كبيرة، لأنّ مارشا مستقرة عاطفياً.. لكن روجيه لم يكن بعيداً عن فكرها.. وتذكرت كم ظنته قاسي الفؤاد يومها.. ولقد

صفعته بسبب قسوته، وذهل لما فعلت... تذكّرت كذلك كم بدا مذهولاً حين قالت إن مارشا حاولت الانتحار.. ولقد سأل فيما بعد عما إذا خرجت من المنزل منذ «وقوع» أختها في النهر.. وعرفت أن سبب ذهوله الوحيد هو معرفته بأن مارشا لم تحاول أبداً إغراق نفسها.

قالت:

ـ هل يعرف روجيه.. أنك لم تحاولي إغراق نفسك؟

ـ بالتأكيد يعرف. لم يخطر بباله قط أن وقوعي في النهر لم يكن سوى حادثة.. وأنا متأكّدة من هذا... فبعد أن أرسلك لتغيري ملابسك، وهدأني من الهستيريا التي كنت أعاني منها اعتذر لعدم ملاحظته أن ممر النهر بحاجة إلى بعض الحصى.. ولا بد أنه رأى آثار انزلاقي.. ولا بد كذلك أنه ظنك انزلقت بالطريقة عينها.

تذكرت رؤية حصى جديدة على ممر النهر بالأمس فقط.. ولم يدل هذا فقط على أن روجيه يأخذ مسؤولياته على محمل الجد، بل يدعم قول مارشا.. في تلك اللحظة، أحست كولين أن أفكارها مشوّشة.. لم تعد تعرف ما إذا كانت تحب روجيه أم تكرهه.

تمتمت بصوت مرتفع:

ـ ظنّ أنّنا إنكليزيتان غريبتا الأطوار، لأننا غطسنا في الماء بثيابنا كاملة.

ـ وهل قلت له إنني كنت أنوي ترك الجامعة بسببه؟

ـ نعم.. قلت له.. وضربته لأنني ظننته يتصرّف بقسوة.

صاحت مارشا بأنفاس محبوسة:

ـ ضربته؟ يا إلهي كولين! لقد غامرت بحظك! كان يمكن أن يطالب بتعويض عن هذا.. كل شيء أصبح الآن مفهوماً!

ـ وما هو؟

ـ لن يعجبك هذا.. لكن، وبما أن هذا يبدو وقت «الاعتراف» فمن

الأفضل أن أقول لك.. أنني.. حسن جداً.. سأبدأ من البداية.

ـ أتمنى هذا.

بدت مارشا راغبة في قول كل شيء والانتهاء منه.. اعترفت أنها لامت كولين، ليس فقط لأنها السبب غير المباشر في وقوعها، بل لأن روجيه كان يراها في حالتها السيئة تلك.. لكنها أحست بالراحة بعد أن وضعتها مدام بوسيل في الفراش.. وفيما بعد جاء روجيه ليراها ويقول لها إن كولين مصممة على إعادتها إلى انكلترا في اليوم التالي.

ـ لم يكن يهتم لأنك متسلطة كولين.. وقلت له إنني لا أريد الذهاب.. أبداً. لكنه قال إنك بمنزلة أبي، لأنك أختي الكبرى، وهو مضطر للرضوخ لرغبات أبي، وكان هذا يعني أن أرافقك إلى انكلترا متى شئت.. إلا إذا مرضت وتعذر علي أن أسافر.

كانت المرة الأولى التي تعرف فيها كولين، أن روجيه اعتبرها في مركز أبيها.. وقد خطف هذا أنفاسها. وحاولت إجلاء المزيد من الضباب:

ـ لكن، بدلاً من رشح بسيط، أصبت بنوبة ربو حقيقية.

بدت مارشا خجولة.. وقالت معترفة:

ـ لم يكن هناك شيء حقيقي في نوبة الربو. لا تكرهيني لهذا كولين. أعرف أنني سببّت لك الكثير من الألم.. وتصرفت كطفلة مزعجة طائشة معك، لكنني لم أكن مريضة أبداً.

لم تصدق ما سمعت:

ـ لكن..

ـ إن كان لأحد أن يعرف كيف يتظاهر بالإصابة بالربو، فهو أنا.

ـ لكن ماذا عن أندريه غيوسي؟ لقد أعطاك أقراص دواء و..

ـ مهدئات على الأرجح.. عرفِ أنني أزيف العوارض حين أخذ نبضي الذي لم يتغير.. وعرف روجيه بذلك أيضاً لأنني قلت له هذا قبل

وصول الطبيب.. والطبيب علم بأمري حين قرع صدري.. لما أخرج سماعته واستعد لتفحص رئتاي، كان علي الرد على ما يدور في عقله. فقلت له إنني أمر بأزمة عاطفية لا أريد أن أقلقك بها.. وأخبرته قصتي مع الربو.. فقرر أن يستمر في مراقبتي.

لم تعد راغبة في المزيد من الصدمات.. فيكفيها ما عرفته حتى الآن..

قالت لمارشا بحدة:

ـ يجب رميك بالزيت الحار.. أنت وروجيه بوشين وأندريه غيوسي.

ـ أوافق.. لكن، عليّ أن أعترف أني لم أعرف عندها أن روجيه لم يكن يرغب في الاحتفاظ بي، بل بك.

ـ ولماذا يريد مني أن أبقى؟ لقد قلت له إنني لا أستطيع الانتظار حتى أرحل.

ـ يا عمتي العجوز كولين.. أنت بلهاء بالنسبة للرجال أمثاله! إنّه رجل يحب التحدي.. وماذا فعلت أنت؟ ضربته؟ ولم ترضي بهذا بل أهنت حسن ضيافته بالقول إنك لا تستطيعين الانتظار حتى ترحلي. فكيف يدهشك أن يجبرك على الانتظار كي تندمي عمّا قلتِ؟ ثم أعتقد أن لديه بضعة أمور يجب أن يسويها معك! دعوتك للعشاء بالأمس كانت مجرد «مقدمة»! حقاً، كولين، أنا لم أخرجك من هناك إلا في الوقت الضروري!

في ظروف أخرى.. كان من الممكن لكولين أن تجد تعليق أختها مضحكاً... لكن الآن، منعها الألم الذي يعتصرها من الداخل من إيجاد ما هو مضحك.

بدت السعادة على والدهما لرؤيتهما، وعندما أخبرته مارشا أنها قطعت إقامتها وعادت لأنها اشتاقت إلى المنزل، صدّقها دون أدنى شك.

تلك الليلة ذهبت كولين إلى الفراش، وبقيت مستيقظة تفكر بروجيه الذي كانت بعيدة، بعيدة عنه..

في الصباح التالي راحت الذكريات تغزوها.

قال الوالد وقد وضعت البيض واللحم أمامه:

ـ من الجيد أنك عدت كولين.. ألن تتناولي شيئاً؟

لكنها اكتفت بفنجان قهوة.. وقالت:

ـ سأتناول شيئاً مع مارشا حين تستيقظ.

رافقته إلى الخارج في طريقه إلى عمله.. ثم عادت لتغسل كومة الثياب فعادت أفكارها تدور حول روجيه.. لقد وقعت في حبه.. وهو رأى ذلك الحب، وأدار ظهره له.. كرامتها تملي عليها أن تكرهه.. لكن الحب، كما اكتشفت، أقوى من الكرامة.

في الحادية عشرة من ذلك الصباح، استفاقت مارشا وأرادت الخروج لرؤية «العصابة». وحين طلبت أختها منها إنزال الثياب المتسخة، ردت:

ـ في الواقع.. لم أفرغ حقائبي بعد.. لكني أشكرك على الثياب الرائعة التي خطتها لي خلال غيابي...

أسرعت تصعد السلم، وعادت بعد ربع ساعة محمّلة بالثياب المتّسخة..

ـ أنا على استعداد للبقاء حتى أساعدك.. لكنني أريد أن أخرج.

وكانت في منتصف الطريق إلى الباب حين ارتدت مبتسمة.

ـ أوه.. وفّري على نفسك نوبة قلبية.. ولا تنظري إلى غرفتي.. هذه نصيحة!.. أحبك.. زهرتي!

ما كادت مارشا تغلق الباب خلفها حتى رن جرس الهاتف.. كانت متأكدة أن المخابرة لمارشا التي أمضت نصف الأمسية السابقة على الهاتف تخبر كل أصدقائها بعودتها.. ذهبت لتلتقط السماعة ثم كادت ترميها من يدها...

تساءل صوت مألوف بلكنة غريبة:

ـ كولين؟

إنه صوت تعرفه في أي مكان!

* * *

www.elromancia.com

٩ ـ غضب . . . حزن . . وأمل!

ابتلعت كولين ريقها بصعوبة . . واصطكّت ركبتاها، فلماذا يتصل روجيه بها؟ أملت ألاّ يكون قد اكتشف حبها له . . وتمنّت أن تساعدها كرامتها على إخفائه.

ردت ببرود: «أجل . . أنا كولين».

ـ يبدو صوتك جافاً مثل . . الرسالة التي استلمتها لتوي.

بدا من صوته أنه لا يهتم لما تكتب ولا لطريقة كلامها . . لكن، أيكون سبب اتصاله رغبته في توبيخها على ما كتبت؟ بذلت جهداً كبيراً لتبقى هادئة.

سألت كبرياء:

ـ لماذا تظن أنني أبدو مختلفة؟

سادت لحظات من الصمت، عرفت خلالها أن عليها أن تقفل السماعة . . لكنها وجدت أن يدها لا تطيعها. ثم رد روجيه بدفء كاد يشلّ مقاومتها.

ـ ظننت . . بعد المتعة التي تشاركناها . . أمسية السبت . . حين . .

قاطعته: مسيو . . تلك الأمسية لا تعني لي شيئاً، لا من بعيد ولا من قريب.

وفي اللحظة التالية، تحركت ذراعها المشلولة . . وقبل أن تفكر مرة أخرى، كانت السماعة مكانها.

في الدقائق العشر التالية، أخذت كولين تلعن روجيه بوشين بسبب

التأثير الذي ما زال يمارسه عليها، رغم المسافة التي تفصل بينهما. أحسّت ببلل خدها فأدركت أنها تبكي . . مسحت دموعها بغضب. وازداد غضبها لأن ذلك المتعجرف لم يرضَ عمّا كتبته في رسالتها من شكرٍ على «الخبز والملح» فاتّصل بها ليحاسبها.

اللعنة عليه! وأخذت تملأ آلة الغسيل. أحسّت أن شخصيتها الهادئة تلاشت ولم تدر ماذا تفعل . . تركت كل شيء وتوجهت إلى السوق لإعادة ملء خزانة المؤونة بما يلزم . . ولكنها اكتشفت لدى عودتها إلى المنزل أنها نسيت نصف ما كان يجب أن تشتريه.

بسبب جوعها، عادت مارشا مسرعة إلى البيت، لتتناول لقمة وقت الغداء . . لكن ما إن انتهت من تناول الطعام حتى خرجت مرة أخرى قائلة:

ـ سأرتب غرفتي قبل أن أنام . . أعدك!

في الساعة الثانية، كان بعض الغسيل قد جفّ وبات صالحاً للكوي، فسارعت تحضّر لوحة الكوي . . وفي الثانية وخمس دقائق قرع جرس الباب . . فأطفأت المكواة وذهبت لترد . . وكاد يغمى عليها فوراً!

قال روجيه بوشين:

ـ طريقة كلامك معي على الهاتف عدوانية جداً.

بدا لها أطول قامة، وأوسم وجهاً . . وأحست أن قلبها يكاد ينفجر في صدرها . . ولم تدر لماذا خطت خطوة إلى الوراء دون تفكير . . فعرفت ولو متأخرة، أن روجيه رأى تراجعها عن الباب كدعوة له للدخول.

وكان الوقت قدّ تأخر كذلك لكي تطبع المنطق الذي أملى عليها أن تغلق الباب في وجهه. لكن الغلبة كانت للأخلاق الحسنة التي نشأت عليها، فقادته نحو غرفة الجلوس.

قالت: هل لي أن أقدم لك بعض المرطّبات؟

ـ لدي ما هو أهم من الجلوس واحتساء الشاي بأدب.

كانت لهجته قاسية، ونظرته كذلك . . وكانت تنبعث من عينيه نظرة

تعب وإرهاق، دلت على أنه كان يعمل جاهداً في الأربع والعشرين ساعة التي مرت.

قالت: «لا بد أنه مهم حقاً إذ لم يكن بوسعك الانتظار لتأتي إلى هنا في العبّارة».

ـ هناك مدرّج مطار في مكان غير بعيد عن هنا.

وتركها حائرة فهل استأجر طائرة أو قاد طائرته الخاصة؟ وفي كلا الحالتين، كانت مصدومة.. ودفعت نفسها لترد:

ـ لا بد أن مهمتك ملحة فعلاً.. إنما لا أظنك أسرعت إلى هنا لأن رسالتي لم تعجبك، ولأنّ طريقتي في الكلام معك عبر الهاتف لم ترق لك..؟

بدا واضحاً أنّ تصرفها لم يعجبه إذ قال بعدوانية:

ـ أحتاج إلى بضعة ردود منك كولين بوكستر.. والواقع أنني لم أشأ معاودة الاتصال الهاتفي كيلا تقفلي الخط مجدداً في وجهي..

قالت محاولة السيطرة على اضطرابها:

ـ فهمت.

ثم حين أحسّت أنه قد يدوس عليها لو تركت له المجال، وجدت الصلابة الكافية لتقول له:

ـ لا شك أنك ستسأل عن صحة أختي التي ابتعدت عن بيتك، وعن إشراف الدكتور غيوسي.. مارشا.. مسيو.. في صحة ممتازة.. كما كانت دائماً.

لم يُظهر روجيه أي أثر للدهشة.. بل ظهر بريق غريب في عينيه اللتين رفضتا الابتعاد عنها:

ـ آه..! لقد اعترفت لك أنها لم تكن مريضة؟

قالت ببرود:

ـ لقد اعترفت أنه لم يخطر ببالها أن تدّعي المرض، حتى اقترحت

عليها ذلك.

تابع النظر إليها مفكراً: «هاه»!

ثم هز كتفيه العريضتين، وبدا كأنه يقوّمها، بشكل غريب.

ـ كولين.. قبل أن تفهمي سبب وجودي هنا، أنت بحاجة إلى شرح شيء ما.. وقد يطول الأمر. ومن الأفضل لك أن تجلسي.. أليس كذلك؟

لم تكن تنوي الجلوس، وفضّلت البقاء واقفة لكي يخرج بسرعة.. لكن نيتها ضاعت حين مد يداً وأمسك ذراعها، فتحركت مبتعدة بسبب لمسته الكهربائية، ولأنها خافت أن يعرف ما يمكن للمسته أن تفعل بها، أجبرت نفسها على التظاهر بأنها كانت متّجهة نحو الأريكة..

كان داخلها رخواً «كالجل».. ومما زاد من سخطها، أنه تقدم ليجلس إلى جانبها، وأخذ يحدّق إلى وجهها، وهذا ما صعّب الأمر عليها وهي تحاول أن تتذكر عم كانا يتكلمان.

قالت بصوت حازم ومتقطع:

ـ لا داعي أن تشرح شيئاً مسيو.. لقد شرحت لي مارشا بما فيه الكفاية.. أؤكد لك.

عاد البريق إلى عينيه.. وقال بصوت ثابت:

ـ أعتقد أن شرحي سيختلف تماماً عن شرح أختك.

ـ إياك أن تتجرّأ وتنعت أختي بالكاذبة!

تحدث بغضب حاجبه المرتفع، فقد تذكّرت مسألة الربو التي لم تكن سوى كذبة كبيرة.. ولكن لحسن حظها لم يتابع الموضوع.

ـ لا يمكن أن أكون عديم اللياقة الى هذا الحد.. إنما عليك أن توافقي أن لها قدرة على تحويل الحقائق إلى دراما.

استعادت هدوءها:

ـ أعرف أنها تظاهرت بالمرض.

ـ لم أكن أشير إلى ادعائها المرض.. بل إلى أنها افتقدت أباها كثيراً فكنت أنا الرجل الراشد الوحيد حولها.. ولقد بدأ كل هذا حين كتبت لك لتوهم نفسها أن ما تشعر به حيالي هو الحبّ.

بدأت:

ـ إنها..

لكن رغم ولاءها لأختها، كان عليها الاعتراف بأن ما قاله روجيه حقيقة..

ـ بسبب مرضها الذي استمر ثلاث سنوات وبسبب معاملتنا إياها كطفلة لفترة طويلة، لم تتحلّ مارشا بالنضج المناسب.

وكان هذا أفضل دفاع لديها عن أختها.

قال موافقاً: «بالتأكيد».

ثم أضاف:

ـ سوف تؤمن لها الجامعة النضج الذي تفتقر إليه.. لكن أختك لم تكن تشكّل مشكلة بوجود ڤيڤيان، ابنة أختي، هناك.

ـ وهل أصبحت تشكل مشكلة بعد اضطرار أختك للسفر؟

سألته بذهول بعد أن تذكرت أنه لم يستنكر بقاء أختها في الشاتو بعد سفر شقيقته.

قال:

ـ لم تكن مشكلة كبيرة.. فكرت أن أعيدها إلى انكلترا حين سافرت والدة ڤيڤيان بسرعة لتقف إلى جانب زوجها.

ـ لكنك..

التوى فم روجيه لأول مرة وظهرت عليه ابتسامة وجدتها كولين فاتنة، وأدركت أنها اشتاقت لها..

أردف: «جاءت مخابرتك الهاتفية في لحظة غير مناسبة.. فأنا مثلك أحب عائلتي.. كنت قلقاً كثيراً على لويس، وفكرت أن على أن أطمئن

والدة ڤيڤيان، التي لديها ما يكفيها من قلق على زوجها، أن وجود مارشا لن يشكل مشكلة.. وكنت قد فرغت من إخبارها على الهاتف أنني سأحرص على ألاّ تضجر مارشا، كما وعدت أن أجد لها ما يشغلها في مكتبتي. حين وصلت مخابرتك من انكلترا».

انزلق لسانها قبل أن تستطيع منع نفسها:

ـ لكنك كنت ساحراً في البداية.

قال ببطء:

ـ حتى في أوقات المحنة الضاغطة، يحاول المرء أن يكون مهذباً.

يا الله! تذكر تعليقه على تهذيبها قبل قليل.. فهل يعلم أنها تشعر بضغط كبير في الداخل.. رغم كل محاولاتها البائسة لإخفاء هذا؟

أكملت بتحد:

ـ حسن جداً.. سحرك لم يدم طويلاً.. أليس كذلك؟

ـ لم يكن لذلك السحر فرصة.. فقد بذلت جهدي أن أكون متمدناً، أما أنت، فكان صوتك يزداد برودة.. وكنت أعرف جيداً أنني لم أفعل شيئاً خاطئاً، ولم يعجبني شكّك كولين. لم يعجبني أن تتساءل امرأة إنكليزية لا أعرفها عن أخلاقي، ولم يعجبني أن تتخذ القرارات عني.. ولو تُركت الأمور وشأنها، لوجدت أنني كنت سأتصل بوالدك لأقترح عليه أن تنهي مارشا زيارتها، ثم تعود في وقت آخر.

ـ لكنك أقفلت الهاتف في وجهي.

اعترف:

ـ كنت قد اكتفيت من إعطائك الأوامر لي.. مع ذلك فقد بقيت منزعجاً لأربع وعشرين ساعة.. لم أكن أفكر فيك.. مع ذلك بقيتِ أنت ومكالمتك تلاحقانني حتى وجدتك فجأة أمامي.

ـ أنت.. لم تعتقد أنني سأقبل باقتراحك وآتي لآخذ مارشا بنفسي؟

هددت ابتسامته السريعة هدفها مرة أخرى:

- لا أعتقد هذا. . لكن رؤيتك في باحة منزلي كانت مفاجأة لي. . لكنها لم تكن تساوي شيئاً أمام المفاجآت الأخرى.

- تعني حين أخبرتك عن مشاعر مارشا نحوك؟

قال بصوت منخفض:

- مون ديو! كانت مفاجأة مذهلة لي تلك الليلة! ولكني ذهلت أكثر عندما سمعت اتّهامك لي. . .

لن تنسى أبداً تلك الليلة:

- لقد غضبت. . حين سألتك. . ما إذا كنت. .

- «أعبث». . في البداية، لم أستطع تصديق أذنيّ. . أنت المتزمتة الباردة التي استضفتك في منزلي تجرؤين على سؤالي عما إذا كنت أعبث مع فتاة صغيرة كانت منذ فترة قصيرة مجرد مراهقة، وضعت تحت رعايتي. . كل هذا وضعني في حالة ذهول كاملة.

- كان علي أن أعرف.

- وهل كنت مضطرة للشك بشرفي كسيد مهذب؟

لم تشعر كولين بأنها مطمئنة لهذا الاستجواب. . وفجأة أدركت أنها خلال الدقائق العشر الأخيرة عادت تتخبّط في اضطرابها من جديد. . اللعنة! من يظن نفسه ليخزها برأس الدبوس؟ لقد آن لها أن تستجمع شتات نفسها.

قالت بلهجة المحارب:

- وهل تصرّفت كسيد مهذب «جنتلمان» حين كذبت عليّ زاعماً أنك لا تستطيع الحنث بوعدك لأبي، مع أن هذا ما كنت تفكر فيه؟

رأت، من تعابير وجهه العنيدة، أنه لم يحب طريقتها بتحدي إرادته. . ولكن يا للدهشة! لم يردّ عليها بعدوانية، بل قال بصوت لطيف، وبلمحة إعجاب في عينيه:

- لقد رأيت العاطفة الجياشة في عينيك منذ البداية كولين. . كنت. .

لم ترغب كولين في أن تتذكر تلك العاطفة التي شاهد انعكاساتها في مواقف أخرى، فتسارعت تقاطعه:

- ولقد رأيتني كذلك متزمتة باردة! فهل هذا سبب اقتراحك أنك سوف. . سوف. .

وبدأ صوتها يرتجف لكنها أجبرت نفسها على أن تتابع:

- . . تدّعي أنك هائم بي؟ وليس السبب ما قلت من أنك تريد أن تنقذ كرامة مارشا، وتجعلها تريد المغادرة طوعاً. . لكن لتنتقم مني. . لتنتقم من وقاحة هذه الإنكليزية المتزمتة الباردة، وتجعلها تصاب بنوبات صرع حين تفكّر بأنها قد تضطر للذهاب معك إلى الفراش.

أصغى إليها روجيه حتى النهاية، ثم قال ببساطة:

- لو استطعت الإنكار كولين، لأنكرت.

امتدت يده لتمسك بيدها لأنه رآها تتحرك بعنف وكأنها تريد مغادرة المقعد. . تابع ويده تمسك يدها:

- وبما أنني لا أريد إخفاء أيّة حقيقة أو تجنّبها من الآن وصاعداً. . يجب أن أعترف أنني لست رجلاً يمكنه تحمّل إهانة اسم العائلة أو الكرامة الشخصية بسهولة. . ولو كنتِ رجلاً، لأخرستك بلكمة على وجهك. . لكنك امرأة.

ردت بحدة:

- امرأة إنكليزية متزمتة.

وجذبت يدها منه متألمة.

صحح كلامها:

- امرأة إنكليزية متزمتة، وجريئة. . امرأة قديرة وقادرة أن تأخذ على عاتقها مسؤولية من تحبّ. . امرأة، بالرغم من مظهرها البارد، لا تستطيع إخفاء العاطفة من عينيها.

سيطرت كولين على رغبتها المتهوّرة التي تدفعها للفرار. .

وتابع كلامه، وعيناه الرماديتان مثبتتان عليها.

ـ ولو أردتِ مفاجأة أخرى.. امرأة اكتشفت بسرعة أنني لست بحاجة إلى الادعاء.. أنني مغرم بها.

قالت كولين بحدة:

ـ لا! أوه.. لا! لن أصدّق هذا.. لا أدري ما هو هدفك من المجيء إلى هنا.. لكن إذا كان الهدف.. حسن جداً.. على أي حال، لن يجعلني أحد.. لن يجعلني..

ـ اهدئي كولين، فأنا لن أؤذيك.

علمت أنها إن لم تسيطر على نفسها، سيصبح متأكداً من قدرته على التأثير فيها بسهولة..

سحبت نفساً عميقاً، وجمعت كل ذرة من سيطرتها على نفسها.. وحاولت أن تكون لهجتها باردة وهي تقول:

ـ أخبرني المزيد.

تمتم روجيه:

ـ كم أحب لو أمسح هذه القسوة عن شفتيك. أعترف أنني أحسست بالرضا عندما جعلتك تنسين نفسك، وتكشفين عن غضبك الحقيقي لهذا الاقتراح. وأعترف كذلك بإحساسي بشيء من الاعتداد بالنفس تلك الليلة حين تركت الصالون وذهبت إلى غرفتك غاضبة.. لكن، في الصباح التالي استبدّ بي القلق عليك، ونسيت ما كنت أخطط له من الاستمتاع بإغضابك..

نظرت كولين إليه بجفاء.. إذ لم يعجبها أن تسمعه يعترف أنه تعمد الإيقاع بها، وسألت ساخرة:

ـ قلق؟ أنت تدهشني! وما الذي تسبب بإفساد متعتك؟

ردّ دون تردد:

ـ الطقس.. لقد رأيتك تنطلقين إلى خارج الطريق الداخلية للشاتو..

وفي اللحظة التالية انهمر المطر بغزارة.. ومع أني كنت أشعر بأني أكرهك شعرت بالقلق عليك لذا لم أر إلا يديَّ تمتدان إلى مفاتيح السيارة، وانطلقت أبحث عنك قبل أن أدرك ماذا أفعل.

قالت ببرود:

ـ لكنني كنت غارقة في البلل ساعة وصلت.

وتذكرت تسليته لرؤيتها مبللة، فقالت له:

ـ بدوت مغتبطاً بمنظري والماء يقطر منّي...

ـ من حقك أن تغضبي.. لكن عليّ أن أدافع عن نفسي.. لقد اكتشفت أنك قادرة على إزعاجي بسهولة كبيرة.. في السيارة، أحسست بتعاطف مؤقت معك، ولم أرغب في الشجار معك.. وقبل أن أقع تحت تأثير هذه الشفقة، نجحت بعد لحظة في تحريك غضبي مجدداً، وذلك من خلال اقتراحي أنني أستطيع الاستفادة من المعلومات التي أعطيتني إياها عن افتتان أختك بي.

ردت بحدة:

ـ لم أكن قادرة على الكلام معك دون إغضابك بطريقة أو أخرى.

ـ هذا ما كان واضحاً.. أنت لم تتكلمي، بل كنت نائمة في المرة التالية التي رأيتك فيها..

قاطعته:

ـ إن كنت ستشير إلى تلك المرة التي تسللت إليّ فيها وعانقتني.

لم يتركها روجيه توقف كلامه:

ـ أنا مضطر إلى الإشارة إلى هذا.. لأنها كانت المرة الثانية التي أجدُني فيها أتصرف دون أن أعرف دوافعي.. لقد دخلت الغرفة، ورأيتك نائمة ودون أن أعرف ما الذي دهاني، عانقتك.

ذهلت كولين لثانيتين فقط.. وراودها أمل في أن روجيه ربّما يحاول أن يقول لها المزيد.. ثم قفز التعقل ليطلب منها أن تتجاهل مثل هذه

الأفكار الغامضة.

وقالت بسرعة:

- سأقول لك ماذا دهاك! لم يكن أي شيء سوى غريزتك الرئيسية.. غريزة العبث.. لقد رأيت أمامك فرصة لا تُفوت.. فاستغليتها.

لكن روجيه لم يردّ على الفور.. ولذا شعرت بالقلق.. وبعد لحظات عرفت أنها على صواب. فبعد أن فكّر في ما قالته بقسوة، قال برقة:

- لن نناقش الآن ما إذا كنت عابثاً أم لا، لكن.. أخبريني كولين.. بما أنك لست عابثة.. فلماذا تجاوبت معي كما حصل؟

أحست بحرارة تجتاحها:

- أنا.. أنا.. كنت.. نصف نائمة. على أي حال، لو لم ترنا مارشا، لما هربت كما فعلت، ولما...

- وقعت في الماء؟

- أجل.. وقعت في الماء.. كنت تعرف هذا. طوال الوقت.. رحت أقول لك إنها حاولت الانتحار فلم تقل شيئاً مع أنك تعرف أنها وقعت.. كما كنت تعرف أني قلقة عليها حتى المرض..

قال بلطف:

- يجب أن أركع على ركبتي وأطلب الصفح لهذا.. لكن الحقيقة كولين، أن هناك أشياء كانت تتفاعل في داخلي.. ولا عجب أنني فقدت الإحساس بأبعاد الأشياء.

سألت ببطء:

- أي نوع من الأشياء؟

قال ببساطة:

- أنت.. حين لمحتك تهرعين لتلحقي بأختك في النهر، شعرت أن عليّ أن أخرجك أنت أولاً.

- مع ذلك أخرجتها هي أولاً.. وكما أذكر أخرجت أنا نفسي..

- كانت الأقرب إلى الضفة.. عندما استعدت هدوئي، لاحظت أنك لا تواجهين أي خطر.. ولأنني رأيت ما عليه مارشا من هستيريا، حتّم علي المنطق أن أخرجها من هناك فقد عرفت أنك ستلحقين بنا.

استوعبت كولين ما قاله.. لكنها سألت بحدة:

- وهل حتّم عليك منطقك أن تلمح لمارشا أنها قد تصاب بالبرد بسبب ما حصل؟

أنكر بحدة:

- لا! ليس في هذا الوقت.. فقد جاء ذلك فيما بعد. تركت مدام بوسيل تعتني بمارشا، وذهبت إلى مكتبتي.. لكنني لم أستطع أن أعمل.. لقد كان رأسي مشغولاً بك.

- بي أنا.. وليس بمارشا؟

طرحت السؤال قبل أن يساعدها التفكير السليم على الاستنتاج أن روجيه عازم على جعلها تدرك أمراً معيّناً..

أكد لها بوقار:

- نعم.. بك كولين.. كنت هناك.. تلك الإنكليزية الباردة المسيطرة.. ولا أحد يمكنه الوصول إلى البرودة التي كنت تدّعينها.. لكن عاطفة جياشة كانت تضطرم في عينيك، وعرفت هذا.. ولقد رأيت تلك العاطفة مرة أخرى قبل أن تصفعيني بقليل.. وكنت قد بدأت أدرك أنني أصبح مسحوراً بك أكثر فأكثر.. وفجأة، كنت في المكتبة معي.

خفق قلبها لمعرفتها أنه كان مسحوراً بها. لكنها بقيت محافظة على هدوئها وهي ترد:

- وهل كان هذا السحر سبب تلميحك لمارشا بأن تتصنع المرض؟ ألم يكن لهذا علاقة بواقع أنني أهنت ضيافتك، بالقول لك إنني لا أستطيع الانتظار لأرحل؟

- لا دخل لهذا بغضبي.. ولم أفكر في الحال بأن أدخل مارشا في

مخططاتي.. حتى في ذلك الوقت، لم أكن مضطراً لتبرير أهمية بقائك في منزلي.. كل ما عرفته، هو أني أردت أن أعرف المزيد عنك.. فكرت أنك قد تغيرين رأيك بالنسبة للرحيل، لو دعوتك للعشاء بمفردنا.. لذا قلت لمدام بوسيل أن تنصح أختك بأخذ قسط من الراحة بقية اليوم وأن تأخذ العشاء إلى غرفتها.

أصبحت الصورة، أو على الأقل، قسماً منها، أكثر وضوحاً.

ـ وفشلت خطتك لجعلي أغير رأيي لأنني لم أنضم إليك للعشاء تلك الليلة؟

هز رأسه:

ـ هذا صحيح، وهذا ما أغضبني.. ولو أنني ما زلت أجهل السبب، لكن هذا جعلني أكثر تصميماً على جعلك تبقين.

بدت خططه أقل مكراً.. لكن كولين غضبت لأنها كانت هدف تآمره.. فقالت بحدة:

ـ من حسن حظك أن مارشا تماشت معك، ولعبت دورها بشكل جيد.

ـ حسن حظي؟ أتعتقدين أن الحظ حالفني في الانفراد بك؟ كنت مشغولة جداً بتمريض أختك.. ولم أرك البتة! يا إلهي! كان اندريه غيوسي يحرز تقدماً أكثر مني معك!

ـ تقدم! يا إلهي! إنه أكثر عبثاً منك! كل ما قصدته من الكلام عن افتتانك بي، هو العبث. وهذا ما أثر في كبريائك الرجولية.. ألم يحصل هذا.. حين لم..

تعالى اللون الأحمر إلى وجنتيها لأنها تذكرت ما حصل، ثم أكملت:

ـ حسن جداً.. إذا أتيت إلى منزلي لمجرد محاولة لإرضاء كبريائك كرجل.. فقد أقدمت على عمل فاشل لأنني غير مهتمة بالعبث معك الآن أكثر مما كنت في الماضي!

سألها بوقار وبرود يتناقضان مع النار التي تشتعل في داخلها:

ـ هل انتهيت؟

ـ تماماً!

ـ إذن، ربما تسمحين لي بأن أقول لك إنه لم يخطر ببالي قطّ أن أعبث معك.

كاد تعليقه الذي يدل على أنه لا يجدها مرغوبة، يصعقها.. لكن عندما تذكرت ما حدث جيداً، قالت بحدة:

ـ لا؟ وهل ستقول لي إنني تخيّلت كل شيء؟ وإنك لم تعانقني وأنا نائمة؟

ـ آه.. لقد عانقتك كولين. لكنني عانقتك فقط لأنني لم أستطع منع نفسي.. وهذا ما يجعلني أتساءل.. بما أنك قلت إنك لست مهتمة بالعبث معي، فلماذا تجاوبت معي؟ ألم تستطيعي منع نفسك أنت كذلك؟

اشتدّ سخطها.. إذا لم توقفه عند حده، فسرعان ما سيتأكّد من أنها تحبه.. وهي لا تريد أبداً لهذا أن يحدث..

قالت بابتسامة عادية:

ـ كنت قد بدأت كوي الثياب حين قرعت جرس الباب.. مسيو. وبما أنك لا تريد مرطبات من أي نوع، فأنا واثقة أنك ستعذرني إن عدت لأتابع عملي.

لم يفتها ملاحظة لمعان التصميم في عينيه.. أحسّت بوجوده يغمرها.. طول قامته، ومظهر ذقنه القوي.. كان في رأسها أشياء كثيرة حتى أنها لم تهتمّ بأن تتصرف كمضيفة لائقة، وقالت ببطء:

ـ أرجو أن لا تظنني فظة الأخلاق.. إنما ليس لدينا هنا من يساعدنا في الأعمال المنزلية.. ولا أحب أن أترك الكوي إلى أن...

ـ كولين!

وصمتت.. كانت يدها على أكرة الباب، لكنها لم تستطع إدارتها.

أحست بأنها تكاد تختنق.. وأرادت أن تبتعد عنه.. لكن، وكأن إرادته أقوى من إرادتها، فما كان عليه سوى التلفظ باسمها ليشل أطرافها.. وفارقها هدوؤها فجأة..

ردت: نعم؟

ما إن سمعته يتحرك حتى بدأ هرمون الأدربنالين يضخ في دمها.. كان وراءها تماماً..

قال بصوت هادىء:

ـ منذ رأيتك آخر مرة، لم أنم كثيراً، وعملت بسرعة كي أعود إلى منزلي لظني أنك ما زلت هناك.. ولم أصدق أنك ذهبت. لكن المخابرة التي أجريتها إلى انكلترا حملتني على التصديق..

لم يكن لديها ما تقوله، لكن كان من الصعب عليها أن تبقى جامدة وقد أمسكت يداه بذراعيها:

ـ حين وجدت أنك لست في المكان الذي يجب أن تكوني فيه، لم يعد هناك أمامي سوى أن أجيء إلى حيث أنت، لكن.. كولين بوكستر.. إذا كنت تظنين أنني سأبتعد.. أنني سأخرج من حياتك.. دون أن أقول لك ما جئت لأجله.. ودون أن أعرف مشاعرك الحقيقية.. فأنت على خطأ..

جعلت كلماته الذعر يدبّ في نفس كولين.. ولم تكن تنوي أن تستدير لتواجهه.. ثم اشتدّت قبضته حول ذراعيها، فتحركت قدماها العنيدتان حتى أصبحت في مواجهته..

خاطبته، دون أن ترفع رأسها:

ـ لماذا جئت.. مسيو؟ وماذا تريد أن تقول لي؟

أصبحت تعي قدرته على اكتشاف ما تخفيه واجهتها الهادئة، لذا فهي لاتستطيع تركه ينظر إلى عينيها.

قال بكل هدوء:

ـ جي تيم! أحبك!

ارتفع رأسها بحدة، وأخذت تنظر إليه غير مصدقة.. ثم حدّقت الى عينيه الرماديتين مباشرة. وقلبها يخفق بقوة.. كان حلقها جافاً بضع ثوانٍ بحيث غصّت قبل أن تتمكن من البدء بالتساؤل عن تصريحه الذي لا يصدق:

ـ أنت.. أنت.. هل هذا.. يعني.. ما أنا.. أظنه يعني؟

قال وقبضته ثابتة على ذراعيها:

ـ يعني.. أنني أحبك كولين.. أحبك من كل قلبي، وبكل روحي.

خرجت من فمها «أوه» مرتبكة. لم تكن واثقة ما إذا كانت قد بدأت تبتسم بابتهاج غير مصدّقة.. ثم.. فجأة، عادت إلى وعيها.. فسقطت سقطة مريعة من أحلامها. للحظات، تركت نفسها تعتقد واهمة أنه يحبها، لكن كيف يمكنه؟

عندما رأى تعبير وجهها المصدوم، والابتسامة التي كادت تظهر، عرف أي برود فيها قد ذهب إلى الأبد.. لذلك كان ذهوله كبيراً وهي تقول بلهجة كالثلج:

ـ هل تمانع مسيو.. لو أبعدت يديك عني؟

صاح:

ـ كولين.. ألم تسمعي ما..

ـ سمعت كل كلمة.. ولم أصدق شيئاً.

ـ أتظنّين أنني سأكذّب عليك.. في أمر..

صاحت بغضب:

ـ وماذا فعلت طوال الوقت غير الكذب؟ لقد أردت أن تنتقم لكل مرة أهنتك فيها.. وهل من طريقة أفضل من إجباري على البقاء وأنت تعرف أنني لا أطيق صبراً حتى أرحل؟

قاطعها بصوت غاضب:

ـ شرحت لك سبب رغبتي في بقائك. لقد أسرتني.. وأردت أن أعرفك أكثر.. أن..

ـ كان يجب أن تعرفني أكثر على أي حال! لولا أنك.. في ذلك اليوم الذي زرنا فيه المزرعة..

قاطعها:

ـ قلت لك.. إنني لن أؤذيك.. يا إلهي! أردتك بعد ظهر ذلك اليوم كما لم أرد امرأة من قبل.. لكني سيطرت على مشاعري الجارفة تجاهك.. فهل كان ذلك عمل رجل مصمم على الانتقام؟

أوقفته وقد فقدت السيطرة على أعصابها:

ـ سيطرة! ذاكرتي تقول إنك ما كنت لتهتم بي أبداً!

ـ وهل لك خبرة كبيرة مع الرجال؟ صدقيني، كان عذاباً لي أن أعرف أنني قادر على الوصول إليك لو أصريت.. لكنني بقيت أذكر نفسي أنك.. عذراء. ورحت أكبح مشاعري خشية أن أخيفك وأفقد فرصة الحصول عليك إلى الأبد.

ـ فرصة!

نظر إليها ساخطاً:

ـ كان في رأسي أشياء أكثر من العلاقة العابرة.. نعم كنت أريدك.. لكن ليس من أجل علاقة عابرة لا معنى لها.. أحبك.. وأحب كل ما هو حولك.. وعرفت أنني أحبك ذلك اليوم الذي سمعتك فيه تتكلمين مع والدك في الهاتف. حين امتنعت عن القول له إنك تعتقدين أن مارشا حاولت الانتحار، عرفت أي شخص رائع أنت.. وكذلك حين سمعتك تقولين له إنكما ستعودان سريعاً، عرفت أنني لا أريدكما أن تذهبا.. وعرفت عندها أنك أينما ذهبت، أريد أن أكون هناك كذلك.

فارقها غضبها فجأة، وأحست أنها ستلين إذا استمر روجيه بالحديث هكذا.

ـ أفهم رغبتك في بقائي في منزلك، لكنني لا أتقبل وجهة نظرك عن الأسباب. ولا بد أنك كنت مبتهجاً جداً، لكنك تظاهرت بالتواضع، حين سألتك عما إذا كان بالإمكان أن أبقى لأعتني بأختي.. فهذا على أي حال، ما خططت له.

ـ هذا صحيح.. لكنني لم أكن أعرف عندها ما كان يحدث لي.. لم أعرف أنني لن أخبرك أنها ليست مريضة.. رغم ذلك وفي الوقت ذاته كنت أخشى أن تكتشفي الأمر من غيري قبل أن أستطيع القول لك.. ولم أكن أعرف أن الغيرة القاتلة ستملأ قلبي حين سمعتك تنادين الدكتور غيوسي باسمه الأول، في الوقت الذي كنت فيه ترفضين بعناد استخدام اسمي.. ولم أكن أعرف كذلك حبيبتي كولين، معنى ما شعرت به حين وجدتك في منتصف الليل تتفقدين مارشا.

بالرغم من نصائح عقلها، خفق قلبها حين فكرت بتلك الليلة.. وقالت دون وعي:

ـ لقد قبلت خدي.

ـ بدوت هشة وأنت واقفة هناك بشعرك الأشقر الجميل المبعثر حول وجهك.. ولم تكن الرغبة هي التي شعرت بها وأنا أراك لا ترتدين سوى غلالة النوم.. بل الحاجة لحمايتك.. شعرت بحاجة ملحّة لضمّك بين ذراعي.

ـ لكنك لم تفعل.

ابتسم: كيف أستطيع يا حبي الجميل.. ما كنت لتفهمي.. وأنا لم أكن أفهم كذلك.. لماذا أردت أن أضمك بشكل بريء.

كان لما قاله لتوه وقع جميل في أذنيها، وخفق قلبها مجدداً:

ـ وهل كان هذا السبب هو الذي منعك من معانقتي بعد العشاء أمسية الأحد.. أخشيت أن أسيء فهمك؟ قلت إنك كنت راغباً في معانقتني.

ـ لم أنس شيئاً مما حدث في أجمل ليلة... في حياتي.. كانت

الأمسية كلها مميزة بالنسبة لي، وآمل أنها كانت هكذا بالنسبة لك أيضاً. كنت أتوق أن أختم أمسية رائعة بعناق.. لكن شيئين منعاني.

أحست بدقات قلبها المجنونة.. وسألت:

ـ أي.. شيئين؟

ـ أحدهما كان أنني كنت ضعيفاً بسبب الأمسية الساحرة.. ولم أستطع أن أكون متأكداً أنك ستتجاوبين معي كما شعرت أنني لن استطيع تركك تصعدين الدرج.

تذكرت كولين مشاعرها أيضاً تلك الأمسية، وكانت أنفاسها مخطوفة حين سألت:

ـ والآخر.. ما كان السبب الآخر؟

ـ كنت مقتنعة أنني عابث.. فإذا أنهيت الأمسية بعناق، قد تسيئين فهمي وتظنّين أن دوافعي هي العبث مقابل الأمسية.

خفق قلبها مجدداً:

ـ أوه..! لم أفكر في هذا.

قال بلطف:

ـ كان عليّ أن أفكر فيه.. كان هذان السببان ممتزجين: سيطرتي الضعيفة، والفكرة التي كوّنتها عنّي في رأسك.. فكيف أستطيع أن أعانقك؟ كنت أعرف أنني لن أستطيع تأخير السفر إلى باريس إلى ما بعد الصباح الباكر.. وعرفت أنك ستذعرين فيما لو استيقظت في فراشي، ووجدتني قد ذهبت. وكنت ستظنين، مهما كانت الليلة التي قضيناها جميلة، أنني لست سوى مستغل ومستهتر.

تنهدت:

ـ أوه.. أوه روجيه..

رأت أنه ينتظر منها قول المزيد.. وأدركت فجأة سبب تنفسه العميق الثابت.. استجمعت أنفاسها قبل أن تقول له بصوت مرتجف:

ـ أعذرني.. على فرنسيتي السيئة.. لكن.. «جي تيم».

للحظات طويلة، كان هذا كل ما قالته.. فما إن خرجت الكلمات بخجل من فمها حتى أصبحت بين ذراعيه.. وفي غمرة مشاعره، همس روجيه في أذنها بكلمات فرنسية لم تفهمها.. لكن حين تراجع لينظر إليها، لم يكن هناك ما هو غامض في الفرح الذي رأته في عينيه.

تمتمت:

ـ أعتقد أن عليّ أن أتعلم الفرنسية بسرعة.

أدرك لحظتئذ أنه تلفظ بكلمات غزله بالفرنسية، فقبل خدها، ووضع يدها على قلبه الذي أحست به يخفق بجنون مثل قلبها.

كان الواحد منهما مشتاقاً للآخر، فلم يكن عناق واحد يكفي.. ومرت دقائق كلها فرح.. ثم تحركا نحو الأريكة، حيث تمتعت كولين بسماع كلمات حبه.

همس وعيناه تحبانها:

ـ سامحيني حياتي.. أظن أن معرفتي أنك تحبيني، جعلتني أنسى لباقتي.. واحترامي الذي أدين به لمنزل والدك.

قالت بصوت أجش:

ـ لا داعي للاعتذار.

ـ بريئة مثلك تقول هذا؟ أخشى أن يكون هناك نزعة تحررية جداً متأصّلة فيك.

ضحكت وكانت تشعر أنها تحبه وتحب الحياة.

ـ ألا تظن أن جزءاً من اللوم يقع عليك.. وأن أجزاء جديدة من شخصيتي، بما فيها هذه النزعة التحررية، ظهرت منذ عرفتك فقط؟

ضحك روجيه، وعانقها، لكنه تراجع:

ـ كنت غريبة عن نفسك منذ أخذ الحب يدخل إلى قلبك.

هزت رأسها:

ـ لطالما ظننت أنني لست سريعة التأثر.. وأنني قادرة بطريقة ما على أن أتعامل مع معظم المواقف.. لكنني لم أدرك الشخصية التي كنتها في قصرك.. جعلتني أضحك، أغضب، وأستشيط غيظاً في مناسبات، وليس ذلك فحسب بل فقدت السيطرة. وأنا آسفة لأنني ضربتك.

رأت أنه سامحها من ابتسامته:

ـ كان هناك مشاعر أخرى جديدة عليك...

ـ لم أرغب في رجل من قبل.. إذا كان هذا ما تسأله مسيو.

ضحكت لسخطه على كلمة «مسيو».. لكن سخطه كان يتناقض تماماً مع السرور البادي في عينيه.. وتابعت وقد تلاشى ضحكها:

ـ ولم أعرف، أو توقعت أن أعرف ما هي الغيرة.

ـ وهل أحسست بالغيرة؟ لكن ممن.. ومن ماذا؟ أنا لم أنظر إلى امرأة أخرى، ولا أردت أن أنظر منذ عرفتك.. وبالتأكيد كنت تعرفين أني أنظر إلى مارشا نظرة المرشد المسؤول فقط.

ردت بسرعة:

ـ ليس من مارشا.. بل من ڤيڤيان.

ـ ڤيڤيان؟

ـ قبل أن أعرف أنها ابنة أختك.. سمعت صوت وصول السيارة مسرعة، وتطلعت من نافذة غرفتي لأراها بين ذراعيك.. وتألمت كثيراً.

ضمها إليه مجدداً.. وأكملت:

ـ لم أستطع إبعاد صورتكما معاً من رأسي.. وساعتئذ عرفت انني أحبك.

مرت دقائق صمت، سعى خلالها روجيه بكل حنان لإزالة الألم والجرح الذي عرفتهما.. كان لا يزال يحتضنها حين أخبرها عن غيرته من اندريه غيوسي.

ـ لم أختبر قطّ مثل هذا الإحساس العنيف.. تلك الغيرة التي أكلتني،

حين قلت لي إن هناك رجلاً ينتظرك في انكلترا.

ـ إذن لهذا أصبحت عدائياً فجأة!

ابتسم.. ثم جلسا دون كلمة، يتمتعان بالحرية التي يتعاملان بها الآن.

تمتم روجيه كاسراً الصمت الهنيء:

ـ ما أشد سروري أنني اتصلت بڤيڤيان.. فلولا مجيئها، لما تحرّكت فيك الغيرة، ولما أدركت ما الذي جعلك تتجاوبين معي عاطفياً.

ردت:

ـ أوه.. كنت سأعرف.

الحب الذي تكنه له كبير جداً بحيث كانت على ثقة أنها ستكتشفه فيما بعد.. ثم أجفلها ما قاله:

ـ أنت أرسلت في طلب ڤيڤيان؟

ـ طبعاً! كنت على اتصال بمنزلها كل يوم لأعرف أحوال أبيها.. لكن حين أصريت على البقاء مع مارشا إلى درجة تناول وجباتك في غرفتها.. كان عليّ أن أرسم خططاً جديدة.. وما إن تماثل لويس للشفاء، حتى بدا لي واضحاً أن من الأفضل توظيف وجود ڤيڤيان في مرافقة مارشا، وبهذه الطريقة..

ـ أكون حرة.. كي.. أرافقك؟

ضحك:

ـ ولقد نجحت الخطة.. نيس پا؟

ابتسمت بسعادة:

ـ نجحت.. ولكنك اضطررت إلى خطفي لإخراجي إلى العشاء!

ـ آه.. يا كولين! كل ذلك العناء.. مع ذلك، أصبحت مسحوراً بك، بحيث أننا ونحن نشرب القهوة، كنت سأخاطر بكل شيء وأطلب منك الزواج.

اتسعت عيناها الخضراوان، وللحظة لم تعد قادرة على الكلام.. ثم تذكّرت كيف قال لها إنه يجب أن يتزوج، وسألته بلهفة:

- لكن.. هل تريد أن تتزوج؟ أعني.. قلت لي إن ليس هناك طريقة أخرى بالنسبة لك.. لأنك تريد أولاداً يحملون اسمك.

- هذا صحيح.. ما كنت على وشك أن أقوله هو أن لا طريقة أخرى سوى الزواج بك، لكنني لم أفعل خشية أن يفسد تسرعي ما بدا لي بداية واعدة..

اختنق صوت كولين فجأة، لكنها تمكنت من القول بصوت مهزوز.

- تريد أن.. تتزوج بي؟

- أحبك كولين، حلوتي.. بكل ما في جوارحي. كنت كثيرة الانشغال برعاية الآخرين.. ولم يخطر ببالك أن هناك من يريد الاعتناء بك! فهل تدعينني يا حلوتي الحبيبة أكون ذلك الشخص؟ هل تقبلين بالانضمام إليّ في فرنسا؟ هل تشرّفينني وتصبحين زوجتي؟

تنهدت هامسة:

- أوه روجيه!.. أحب كثيراً.. كثيراً.. أن أصبح زوجتك.

تلاشى توتره، وضمها إليه، ليمطر وجهها المرتفع نحوه بقبلات صغيرة، وبكلمات حب بالفرنسية والإنكليزية.

كان الفرح يغمره حين تراجع ينظر إليها وكأنه لا يشبع من رؤيتها.

سأل: «هل ستتزوج قريباً كولين؟ قد أكون صبوراً. لكن ليس حين يتعلّق الأمر بحبّنا».

سمعا شخصاً يدخل المنزل بقوة إعصار. فقالت كولين له:

- إنها مارشا.

نادت مارشا:

- كولين!

وسمعاها تتجه إلى المطبخ، ثم عادت إلى غرفة الجلوس.. وشهقت

فجأة لرؤية من يجلس على الأريكة، وكأن شيئاً سحرياً حدث لها.

سألت روجيه شاهقة:

- ماذا.. تفعل هنا؟

وقف روجيه يجر كولين معه، وقال بأدب:

- بونجور مارشا.

لكن بسبب نظرة الذهول التي ارتسمت على وجه مارشا لرؤيته هناك، وذراعه تطوّق أختها، قال: «إنها قصة طويلة..».

أرسل ابتسامة حب للفتاة التي يحتضنها إلى جانبه.

- لكن.. لو كنت طيبة جداً.. أنا واثق بأن كولين ستسمح لك بأن تكوني وصيفتها في حفل زواجنا!

***